السيرة النبوية في روايات نجيب الكيلاني

قاتل حمزة نموذجا

الدكتور حلمي محمد القاعود[1]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا الحبيب محمد –صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد:

فأود الإشارة إلى أن السيرة النبوية على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان حظيت باهتمام كبير من علماء الإسلام وأدبائه وشعرائه، بل شاركهم غير المسلمين ممن عرفوا قيمتها وأهمية ما جاء به الإسلام من تشريعات وقيم ومفاهيم، فأثنوا على صاحب السيرة –عليه الصلاة والسلام– شعرا ونثرا، مما سيرد بعضه في الصفحات التالية.

وإذا كان الاهتمام في القرون الأولى منصبا على توثيق السيرة وصياغتها في إطار ينقيها من الشوائب والدسائس والأحداث غير الموثقة، فإن نصيب الأدب من الاهتمام بالسيرة يبدو في تلك المرحلة محدودا، وإن كان ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يغب عن ألسنة الشعراء الذي هاموا به حبا وعشقا، وكتبوا كثيرا من القصائد التي تتيه به وتبجله وتكرمه، ولعل قصيدة البوصيري كانت من أبرز المدائح النبوية التي أثرت في العالم الإسلامي تأثيرا ملحوظا، لدرجة أن بعض الصوفية والمنشدين كانوا يعدونها وردا يتلى في المناسبات وبعضهم كان يتلوها عقب الصلوات في الصباح والمساء، ولذا تبارى الشعراء بعد البوصيري في معارضة البردة وتشطيرها وتخميسها وغير ذلك من الفنون الشعرية والبديعية لأنها تتضمن سيرة النبي الهادي –عليه الصلاة والسلام– حتى جاء العصر الحديث لتكون هناك صياغات أدبية عصرية للسيرة النبوية تتناسب مع الأساليب السائدة، وتتناغم مع الفنون المستحدثة مثل القصة والرواية والمسرحية والأوبرا والقصيد السيمفوني..

[1] ـــ كلية الآداب جامعة طنطا مصر.

وقد اهتم عدد كبير من الأدباء المعاصرين باستلهام السيرة وصياغتها في قوالب فنية قصصية تقوم على التشويق والتيسير، وتقديمها في سياقات موجزة أو مطولة، أو في مستوى الأطفال والصبيان، لكي يتعرفوا على سيرة نبيهم -صلى الله عليه وسلم- وجوانب من شخصيته، فضلا عن جهده وجهاده من أجل نشر الدعوة وهداية البشرية..

ولعل أبرز من شاركوا في هذا السياق منذ مطالع العصر الحديث؛ كان رفاعة رافع الطهطاوي، ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، ومصطفي صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، وتوفيق الحكيم، وعلى أحمد با كثير، وعبد الحميد جودة السحار، ومحمد عبد الحليم عبد الله، ونجيب الكيلاني.. من الأدباء. وهناك من علماء الأزهر والدين من كتبوا السيرة بروح أدبية متألقة ومتوهجة مثل الشيخ محمد الغزالي والشيخ سيد سابق، ومحمد سعيد البوطي..

وقد اخترت أن أتناول في هذا البحث الموجز جهود نجيب الكيلاني في مجال صياغة السيرة النبوية من خلال الفن القصصي، بحكم أنه قدم أحدث ما كتب أدبيا عن السيرة في القرن العشرين، ولأنه كان يمتلك الموهبة الأدبية والحرفة الفنية لكتابة أعمال قصصية محكمة، تتحقق فيها شروط الفن والإبداع، دون أن يجور على طبيعة الأحداث المتعلقة بالسيرة أو يتدخل فيها بالتغيير أو التشويه، كما فعل بعض الأدباء مع القصص التاريخي، مثل جرجي زيدان.

ويعد نجيب الكيلاني من أغزر كتاب الرواية والقصة في العصر الحديث إلى جانب كتابة للشعر والدراسة والمقالة، والأهم من ذلك أنه كان ينطلق من تصور إسلامي ناضج يدرك قيمة الإسلام وطبيعة العصر الذي نعيشه ومتطلبات هذا العصر من حرية وتربية وتعليم وأخلاق وبناء القوة لصنع المستقبل.. وقد عاني من سلبيات الواقع المعيش على المستوى الشخصي، ورأى القصور والسلبيات التي تحكم شعوب الأمة وتعوق تطورها وتقدمها، فوجد في السيرة النبوية ملهما لتحقيق طموحاته وآماله في الحرية والكرامة والتقدم.

لقد كان مخلصا لقضية الإسلام الكبرى، وعبر عنها بأساليب متعددة، ومن خلال فنون مختلفة، ولهذا استحق لقب كاتب الرواية الإسلامية الأول، علما أن الرواية أو القصة التي كتبها لم تتوقف عند السيرة النبوية، ولكنها امتدت لتشمل التاريخ والواقع في مصر والعالم الإسلامي منذ فجر الدعوة حتى لحظات ما قبيل رحيله أواخر القرن العشرين.

لقد آثرت أن أشير إلى بعض أعماله الروائية والقصصية في السيرة، ثم أتوقف عند روايته قاتل حمزة، لأنها تجتهد أن تقدم شخصية إنسانية متحولة بكل تعقيداتها وتناقضاتها حتى هدى الله صاحبها إلى الإسلام، وصار جنديا من جنوده، يقاتل دفاعا عن الدين والعقيدة، ويقدم الكاتب من خلاله مسيرة الدعوة الإسلامية والسيرة النبوية، في أسلوب فني رائق وممتع.

وآمل أن كون قد وفقت فيما فعلت، وصلى الله على محمد وأبويه إبراهيم وإسماعيل وآله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أولا: تمهيد

السيرة بين التدوين والأدب

- **السيرة والتدوين**

لا ريب أن شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – كانت محورا مهما في الذهن العربي أيام البعثة النبوية، فكل ما يتعلق به من صفات وأحوال، ونسب وتاريخ، وأفعال وأقوال كان محط اهتمام الدائرة المحيطة به في مكة أولا، ثم المدينة المنورة وما حولها، ثم الجزيرة العربية وما يتاخمها من مناطق ودول في فارس والروم والحبشة، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – أحدث بدعوته انقلابا غيّر طبيعة المعادلات الفكرية والعقدية والاجتماعية والإنسانية القائمة في مكة والدوائر المحيطة بها، وكان هذا الاهتمام في البداية يعتمد على المشافهة حيث كانت عملية الكتابة أو التدوين محدودة للغاية، ومع تمكن الدولة الإسلامية الوليدة وتطور الحياة الإسلامية في الجزيرة العربية بدأ التدوين محدودا، وامتد في عهد بني أمية، وتوسع في عهد الدولة العباسية..

والسيرة النبوية هي كل ما يتعلق بحياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من نسب وتاريخ وأحداث ووقائع وأقوال وأفعال وشخصيات ارتبطت بشخصه – صلى الله عليه وسلم – والصحابة رضوان الله عليهم، وما جرى من غزوات وسرايا وفتوحات تمت في حياته – صلى الله عليه وسلم.

والحديث الشريف هو ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم – أو فعله أو أقره، أو بلّغه عن ربه سبحانه بلفظه هو، فهو وحي ولكنه يختلف عن القرآن الكريم، لأنه بلفظ الرسول- صلى الله عليه وسلم.

والحديث جزء من السنة التي تعني كل ما يتعلق بالأحكام الشرعية التي وردت في أقوال الرسول – صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، وإقراره، ويعتمد عليها الفقهاء وعلماء الشريعة في مطابقة الأحكام الشرعية لما أقره الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وجرى في زمنه.

أما المغازي فهي المعارك التي خاضها المسلمون في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقيادته أو تحت إمرة بعض الصحابة رضوان الله عليهم ردا لعدوان المشركين، أو استباقا لهجوم الأعداء، أو تأمين حياة المسلمين بصفة عامة.

ويمكن القول إن بعض السيرة النبوية كان موجودا في الأحاديث الشريفة يضيء بعض جوانب حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخلاقه وصفاته وجهاده، ويمكن أن نجده في كتب الحديث الصحاح بدءا من (موطأ) الإمام مالك – رحمه الله– (المتوفَّى 179هـ)؛ وصحيح الإمام أبي عبد الله البُخاريّ (المتوفَّى 256هـ)، وصحيحُ الإمامِ أبي الحُسينِ مُسلمِ بن الحجَّاج (المتوفى 261هـ)، والإمامُ أحمدُ (المتوفى 241هـ) في مسنده الكبير، وسنن أبي داود، والنسائيُّ والتِّرمذيّ، وابنُ ماجه، ونجد في كل صحيح من هذه الصحاح كتابا رئيسيا اسمه كتاب الجهاد، فضلا عما يتعلق بالسِّيرةِ وصاحبها عليه الصلاة والسلام.

وجاءت السيرة في كل الأحوال متداخلة مع الحديث والسنة والمغازي؛ وقد تأثر مدونو السيرة بالحديث وقواعد تدوينه عند كتابتها، فاعتمدوا على قواعد علمية تشبه قواعد مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل لخدمة السيرة النبوية وتوثيقها مثلما حفظت السنة النبوية.

- **السيرة النبوية فى فكر المعاصرين**

ولعل أول من كتب السيرة النبوية المعاصرة هو رفاعة رفع الطهطاوي، في كتابه "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز"، وقد حاول أن يلخص فيه ما كتبه القدماء بأسلوب عصري يتفق مع زمانه (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، وقد ظهر بعده على تفاوت في المستوى والزمان حتى يومنا هذا، عدد كبير من كتب السيرة تتناولها في مجملها أو تتناول جوانب من حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو أصحابه؛ مفصلة أو مبسطة، في أسلوب مباشر، أو صور أدبية تقترب من السرد القصصي، فقد اشتهر كتاب "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن مبارك فوري، الهندي ت 2006م، ويتميز عن غيره من كتب السيرة باعتماده منهجا جديدا حيث جاء كتابه في حجم متوسط متجنباً التطويل الممل والإيجاز المخل، وله كتاب آخر بعنوان: "روضة الأنوار في سيرة النبي المختار".

وقد سبق هذا الكتاب ولحقه عدد كبير من الكتب من أشهرها؛ سلسلة كتب العبقريات للعقاد وتتناول عبقرية بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - وتاريخهم فضلا عن عبقرية محمد – صلى الله عله وسلم – بمنهج نفسي يركز على طبيعة الشخصية وأعماقها ويفسر الحوادث على ضوئها، وكتب محمد حسين هيكل – بعد زيارته الحجاز وأداء فريضة الحج – في منزل الوحي وحياة محمد والفاروق عمر، وكان الرجل يدعو قبل ذلك إلى ما يسمى القومية المصرية، ولكنه بعد الحج، وقراءته للسيرة النبوية اكتشف ثراء الإسلام وغناه الإنساني وموافقته للفطرة الإنسانية، وأنه الدين الخاتم، وقد اتخذ طه حسين نهجا خاصا فكتب "على هامش السيرة" (3 أجزاء) معتمدا السرد

القصصي الشائق الذي يصوغ الأحداث في قالب قصصي مؤثر؛ وكتب توفيق الحكيم كتابا حواريا عن محمد – صلى الله عليه وسلم، وهناك كتاب "السيرة النبوية: دروس وعبر" لمصطفى السباعي، و"نور اليقين" لمحمد الخضري بك.

وهناك من تناول السيرة النبوية بأساليب متنوعة أخرى منها: "فقه السيرة" للشيخ محمد الغزالي، و"السيرة النبوية "لأبي الحسن الندوي، و"مواقف إنسانية في السيرة النبوية" لمحمد سعيد البوطي، و"التفسير السياسي للسيرة النبوية" لمحمد رواس قلعجي، و"قصص الصحابة" لعبد الرحمن رأفت الباشا،، و"السيرة النبوية" لمحمد متولي الشعراوي، و"المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان، و"في السيرة النبوية: قراءة لجوانب الحذر والحماية" للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد، و"ملخص السيرة النبوية" لمحمد هارون... و"دراسات في السيرة" لعماد الدين خليل، وكتاب "السيرة النبوية الصحيحة" لأكرم ضياء العمري..

وقد أفاد عدد من الكتاب لا بأس به من السيرة النبوية في أعمال أدبية سردية قصصية، على سبيل المثال كتب محمد عبد الحليم عبد الله رواية رائعة عن سلمان الفارسي –رضي الله عنه– بعنوان "الباحث عن الحقيقة"، وكتب نجيب الكيلاني أكثر من رواية عن مرحلة الدعوة في صدر الإسلام، أو معالجة قضايا معاصرة من خلالها؛ مثل "نور الله" في جزئين، و"رواية عمر يظهر في القدس" و"رجال الله" وغيرها، وأفاد على أحمد با كثير من السيرة في بعض أعماله أيضا، كما أفاد آخرون غيرهم بدرجات متفاوتة.

والعمل الضخم الذي يمثل تناولا مباشرا للسيرة النبوية قام به عبد الحميد جودة السحار في كتابه "محمد رسول الله والذين معه" في عشرين جزءا، وقد نقل إلى عمل درامي ضخم في التلفزيون؛ حيث قُدمت منه عشرات الحلقات على مدى سنوات عديدة بعد صياغته دراميا بوساطة كاتبة المشاهد والحوار أمينة الصاوي – رحمها الله.

وقد قدمت السينما، بعض الأفلام عن ظهور الإسلام والهجرة النبوية، وشارك ممثلون غربيون في فيلم طويل أخرجه الراحل مصطفى العقاد تحت عنوان "الرسالة"، كما صورت بعض المسلسلات عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم، ويمكن للدراما في التلفزيون والسينما والمسرح أن تفيد فوائد كبيرة من السيرة النبوية بما فيها من حوادث ومواقف ومعجزات وغزوات وجهاد ومعارك؛ لو أحسن استغلالها وصياغتها فنيا ودراميا، وهو ما نجحت فيه الدراما الإيرانية مع تحفظنا على بعض منطلقاتها وتصوراتها.

والسيرة النبوية فيها مجال متسع للصياغة والحركة، على العكس من السيرة الذاتية التي يكتبها الأدباء والمفكرون والأعلام عن أنفسهم، وتكون محدودة بوقائع معينة، ولكن السيرة النبوية تتضمن مسيرة أمة وتحولاتها من الجاهلية إلى الإسلام ومن البداوة إلى الحضارة، ومن العصبية إلى التسامح.

ولعل التراث الشعبي كان أكثر إيجابية وعاطفية موقفه من السيرة النبوية؛ من حيث التعبير عن مشاعر الحب والإجلال للسيرة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام، وقد رأينا المنشدين في حلقات الذكر، وفي الاحتفالات بالمولد النبوي وفي المناسبات الاجتماعية، يعبرون عن مشاعرهم وأشواقهم، وخاصة في مناسبات الحج والعمرة وزيارة المدينة المنورة، فيمدحون النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم يحكي المنشد أو المطرب الشعبي أو ما يسمى الصيِّيت؛ من خلال مديحه قصة المولد النبوي منذ البشارة بحمله –صلى الله عليه وسلم–، ووفاة والده ووضعه وتربيته وانعكاسات الميلاد على الكون والناس وهزيمة أصحاب الفيل وغير ذلك من أحداث ومواقف حتى مجيء الوحي وإبلاغ الرسالة وموقف قريش والمعاناة والهجرة والغزوات وحجة الوداع وانتصار الإسلام. وهذه المدائح تجد إقبالا عظيما من الجمهور خاصة في احتفالات المولد النبوي التي تقام سنويا ويحتشد لها المجتمع بكل طوائفه، وكانت تحدث إلى عهد قريب حيث كان يتم تسيير موكب كبير يضم أصحاب الحرف المختلفة والمهن المتعددة، ويتقدمه رموز الطرق الصوفية وبعض المسئولين ويقف الجمهور على الجانبين متفرجا، وفي المساء يقام سرادق كبير لإنشاد السيرة والاستماع إليها وتشجيع المنشد وبطانته.

ويساعد على ذلك لغة التشويق التي يلجأ إليها المنشد أو الراوي التي تجعل الجمهور يتعاطف مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ويصب غضبه وحنقه على ما يفعله المشركون وما يقومون به من عداء للدعوة ومقاومة لها.

- **السيرة النبوية شعرا**

لا تختلف اللغة الشعرية الأدبية في تناولها للسيرة عن اللغة الشعبية المتوارثة في المديح النبوي، فهي لغة محملة بالعواطف ومشاعر الحب والمودة، وإن كانت تتخلص من كثير من الشوائب العقدية التي قد تغزو الوجدان الشعبي بسبب القصور في التعليم أو الفهم، وهي لغة تعتمد غالبا على التصوير التجريدي الذي يركز عند الصوفية والشيعة على فكرة النور المحمدي، ثم إنها بصفة عامة لغة غزلية تتكلم عن الحب والحبيب ممثلا في النبي - صلى الله عليه وسلم – مع التغني بصفاته ومناقبه وصبره على الأذى وأخلاقه وكرمه وتسامحه وعدله وإنصافه، وقد يركز بعضهم على صفاته الشخصية وخاصة الجمال والبهاء والطلعة الندية وغير ذلك، ثم ذكر غزواته وشجاعته في القتال وثباته ورحمته بالأسرى وتأثيره في الأعداء بحسن خلقه وعطفه وبره..

ويمكن أن نجد ذلك في الشعر العربي بدءا من حسان بن ثابت والأعشى وكعب بن زهير، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وينسب إلى جده عبد المطلب شعر قاله في حفيده – صلى الله عليه وسلم – عند مولده، وشبه ولادته بالنور والإشراق الوهاج الذي أنار الكون سعادة وحبورا، يقول عبد المطلب:

وأنت لما ولدت أشرقت

الأرض وضاءت بنورك الأفق

فنحن في ذلك الضياء وفـــــــي

النور وسبل الرشاد نختـــــرق

ويمدحه كعب بن زهير صاحب اللامية المشهورة التي يقول في مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبـــــــول

متيم إثرها لم يفـــــــد مكبـــــــول

ويعدها بعض الدارسين أساسا لبردة البوصيري التي اشتهرت في القرن السابع الهجري وعارضها كثير من الشعراء من بعدها بوصفها أجمل قصائد المديح النبوي قاطبة، ومطلعها:

أمن تذكر جيـــــــــــــران بذي سلم

مزجت دمعا جرى من مقلـــــــــة بـــــــدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة

وأومض البرق في الظلماء من إضم

ومن أهم الشعراء الذين عارضوها ابن جابر الأندلسي في ميميته البديعية التي استعمل فيها المحسنات البديعية بكثرة ومطلعها:

بطيبة انزل ويمّم سيّــــــد الأمم

وانشر له المدح وانثر أطيب الكلم

وتعددت في العصر الحديث قصائد المديح النبوي وكثرت، وقد درست نماذج منها في كتابي الضخم "محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي الحديث" الذي صدرت منه طبعتان، ومن أوائل

المادحين في العصر الحديث رفاعة الطهطاوي الذي خمّس قصيدة عبد الرحيم البرعي؛ ومحمود سامي البارودي الذي عارض جيمية ابن الفارض، التي مطلعها:

ما بين معترك الأحداق والمهـــج

أنا القتيل بلا إثم ولا حـــــــرج

يقول البارودي في قصيدته:

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج

حتى فتكت بها ظلما بلا حـــرج

مازال يخدع نفسي وهي لاهيـــة

حتى أصاب سواد القلب بالدعج

طرف لو أن الظبا كانت كلحظته

يوم الكريهة ما أبقت على الودج

وللبارودي قصيدة طويلة كتبها في منفاه بسرنديب (سيريلانكا) وعنوانها: "كشف الغمة في مدح سيد الأمة" ومطلعها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم

واحد الغمام على حي بذي سلم

ويحذو أحمد شوقي حذو البارودي في معارضة البردة وغيرها من قصائد المديح النبوي، فله مثلا قصائد نهج البردة والهمزية والبائية، وقد غنتها جميعا أم كلثوم، ولقيت استحسانا جماهيريا عظيما، وما زال صداها كبيرا حتى الآن.

وقد نظم كثيرون السيرة النبوية وأحداثها بالتفصيل، وخطا بعضهم خطوات كبيرة في تقديم أعمال ملحمية منظومة كما فعل الشعراء: أحمد محرم وعامر بحيري وكامل أمين وغيرهم، وخطا عبده بدوي خطوة جديدة حين أنشأ ما يعرف بالقصيد السيمفوني الذي يتم إنشاده في حضور موسيقي مكثف، فكتب (محمد: قصيد سيمفوني) ووضع له الألحان الموسيقار سليمان جميل.

وقد شارك عديد من شعراء النصارى في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والإشادة به وبأخلاقه، وعدوه رمزا للوحدة العربية ومقاومة الاستعمار.

ويلاحظ أن معظم الاتجاهات التجديدية أو الحداثية في الشعر المعاصر كان لها موقف آخر، فلم تقترب أبدا من ساحة النبي صلى الله عليه وسلم – بل إن بعضها كان في خانة العداء للنبي – صلى الله عليه وسلم – بحكم الانتماء إلى الماركسية أو رفض الإسلام بصفة عامة.

- **السيرة النبوية فى الكتابات الغربية**

ترتبط الرؤية الاستشراقية للسيرة النبوية خاصة والعقيدة الإسلامية عامة، بالرؤية الأوربية وموقفها من الإسلام، وهي في جوهرها موقف عدواني منذ الفتوح الإسلامية التي كسرت شوكة الروم وأطاحت بسيطرتهم على الشرق، بدءا من تراجعهم في تبوك مرورا بمحاولات فتح القسطنطينية ثم فتح عمورية حتى عدوان الحروب الصليبية التي انطلقت من سانت مونت كلير عام 1095م بقيادة بطرس الحافي، واحتلال القدس.. لقد احتك الغرب بالعالم الإسلامي في هذه الحروب التي تلفعت بثوب الدين والدين منها براء؛ احتكاكا قويا، وقد صحب هذه الحروب عمليات نهب واسعة للكتب أو المخطوطات الإسلامية في بلاد المشرق، ويمكن القول إن هذه المخطوطات – مازال كثير منها محظورا نشره – بداية لتعامل الغرب مع الإسلام والعالم الإسلامي تعاملا يقوم على فهم التفكير الإسلامي وتصوراته بالإضافة إلى عادات الشعوب الإسلامية وتقاليدها، ولغاتها وتاريخها، وآدابها وتراثها، وقد خصصت بعض وزارات الخارجية الأوربية، وخاصة في الدول الاستعمارية الكبرى أقساما لرعاية المستشرقين الذين يقومون بمهمة دراسة الشرق الإسلامي، بوصفهم طلائع جيوش غزو لا تقل أهمية عن الجيوش العسكرية الجرارة التي أخذت تغزو بلاد الشرق في قفزات متتالية تسعى لتأمين التجارة أو طرق القوافل التجارية والممرات المائية، وكان القادة العسكريون الأوربيون ينظرون قبيل تحركاتهم في الخلاصات التي يتوصل إليها المستشرقون لتكون هاديا لهم، في عمليات الغزو، فضلا عن عمليات التنصير التي تنافست فيها الكنائس الثلاث: الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية..

لقد ركز المستشرقون في دراساتهم ومؤلفاتهم على نقاط معينة في السيرة النبوية بقصد التشويش وإثارة شبهات غير صحيحة ودعاوى كاذبة؛ للتشكيك في الإسلام كله، وضرب العقيدة في الصميم وفقا لخيالاتهم المتعصبة وتصوراتهم الحانقة، مع وعيهم بالحقيقة التي يخفونها تماما، ومن أبرز هؤلاء المتعصبين الذين أساءوا إلى العقيدة والسيرة النبوية: هاملتون جب، وجولد تسيهر، ومرجليوث، وصمويل زويمر، ولويس ماسينيون، ونيكلسون، وآربري وغيرهم.

ويمكن القول إن بعض المستشرقين غالى في عداوته للإسلام، ثم عدل من مواقفه إلى حد ما، منهم أرنست رينان وفولتير وبرنارد شو..

ويلاحظ أن حملات المستشرقين المتعصبين ازدادت بعد أحداث نيويورك في عام 2001، والهجوم على أفغانستان والعراق والصومال، وإرغام الدول الإسلامية على الإذعان للإرادة الاستعمارية الغربية بقيادة الولايات المتحدة، بتغيير المناهج التعليمية وخاصة التربية الدينية الإسلامية واللغة العربية، وقد كان البطل الرئيسي لهذه الحملات الصهيوني برنارد لويس والمستشرق المعروف صمويل هننجتون، والمؤرخ فوكو ياما وآخرون من الصحفيين والكتاب الأمريكان والأوربيين، والموالين لهم في بعض البلاد الإسلامية.

وتجدر الإشارة إلى إن بعض الكتاب النصارى في المشرق الإسلامي كانوا منصفين للإسلام، وكتبوا في السيرة النبوية كتابات طيبة منصفة؛ دفع بعضهم ثمنها من جانب المتعصبين لدرجة أنه لم يصل عليه كهنوتيا بعد وفاته، ومنهم في مصر الدكتور نظمي لوقا، الذي كتب كتابين مهمين؛ هما: وا محمداه، والآخر: محمد: الرسالة والرسول، وفي لبنان كتب نصري سلهب، كتابين في السيرة النبوية أولهما: في خطى علي، والآخر في خطى محمد". وكتب شبلي الشميل: "الضمير العملاق" عن الإمام علي بن أبي طالب، كما كتب عنه الشاعر المعروف جورج جرداق.

- **نماذج من السيرة في أعمال الأدباء المعاصرين**

وفي المجال القصصي فإن عددا من الكتاب والأدباء أنشأوا روايات وقصصا تتناول السيرة وتعالجها بأسلوب معاصر يتيح للقراء التعرف على أحداثها، ويحقق لهم المتعة في الوقت ذاته، وأغلب هؤلاء ممن تعلموا في الأزهر الشريف، أو نشأوا في بيئة متدينة. أما الذين نشأوا على تشرب الثقافة الغربية، فكان من الطبيعي ألا نجد للسيرة أو التاريخ الإسلامي أي أثر لديهم، كما نرى لدي نجيب محفوظ ويوسف إدريس على سبيل المثال.

وفيما يلي نعرض بإيجاز لبعض الروايات التي تناولت السيرة النبوية، تمهيدا للتعرف على ما كتبه نجيب الكيلاني ومطالعته:

طه حسين: على هامش السيرة

حاول الدكتور طه حسين أن ينفي عن نفسه الصورة السلبية التي لحقت به إثر صدور كتابه "في الشعر الجاهلي" ثم كتابه الآخر "مستقبل الثقافة في مصر"، فعمد إلى كتابة بعض الكتب الإسلامية التي تتراوح ما بين السرد القصصي والكتابة المباشرة، فكتب على هامش السيرة في جزئين

عقب أزمة كتابه الشعر الجاهلي، ثم كتب على امتداد السنوات التالية مجموعة كتب منها: في مرآة الإسلام، والشيخان والفتنة الكبرى، وعلى وبنوه..

وقد أثار على هامش السيرة الذي كتبه عقب صدور الشعر الجاهلي بسنتين تقريبا (1924م) كثيرا من الجدل، بسبب الأساطير التي اعتمد عليها طه حسين من أجل الإثارة والتشويق، سواء في الفترة التي سبقت البعثة النبوية، أو رافقتها في مرحلة الصراع مع قريش واليهود.

يقول الدكتور "طه حسين" في بحث نشره في كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام (1946) في باريس:

"لقد حاولت أن أقص بعض الأساطير المتصلة بالفترة التي سبقت ظهور النَّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ثم قصصت مولده وطفولته. ونشرت هذه السلسلة بعنوان مقتبس من جيل لوميتر وهو (على هامش السيرة). ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين اللتين أشعلتا موقدين كبيرين: أحد الكتابين لجيل لوميتر عنوانه (على هامش الكتب القديمة) والثاني: (حياة محمد لأميل درمنجم).

أما كتاب "جيل لوميتر" فإني بعد أن شغفت به كثيراً وضعت في نفسي الأسئلة الآتية:

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية في تاريخ الإسلام في أسلوب جديد أم أنه يتعذر ذلك؟ وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر؟ "

ثم قال عن كتاب (على هامش السيرة):

"هذا الكتاب من عمل المخيلة, اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسي حرية كبيرة في أن أشرح الأحداث وأخترع الإطار الذي يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة مع الاحتفاظ بالطابع القديم".

وكان الدكتور طه يتحدث بهذا إلى المستشرقين في أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام, ويعد كتابه هذا خطوة في هذا السبيل من حيث دمج الأديان كلها في كتاب واحد, وفي اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير في الأدب العربي. هذا ما كشف عنه "طه حسين" بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) وهو ما دفع صديقه وزميل دربه الدكتور "محمد حسين هيكل":

" أستميح طه العذر إن خالفته في اتخاذ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وعصره مادة الأدب الأسطورة. وأشار إلى ما يتصل بسيرته – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ساعة مولده، وما روي عما حدث له من إسرائيليات رُوِّجت بعد النَّبيّ – صلى الله عليه وسلم – ثم قال:

ولهذا وما إليه يجب في رأيي أن لا تتخذ حياة النَّبيِّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- مادة الأدب الأسطوري، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب، وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر، وما لا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما. والنَّبيُّ-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ-وسيرته وعصره يتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً, بل هي فلذة من هذه الحياة. ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً. وأعلم أن هذه (الإسرائيليات) قد أريد بها إقامة ميثولوجية إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب, ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- فقد كانت هذه غاية الأساطير الذي وضعت عن الأديان الأخرى. من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام.

ولا ريب أن كلام الدكتور "محمد حسين هيكل" هذا هو اتهام صريح لطه حسين في اتجاهه وتحميله مسؤولية من أخطر المسؤوليات، وهي:

إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة النَّبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- منها طول العصور. وإعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدي إلى إفساد العقول في سواد الشعب, وتشكيك المستنيرين, ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

وقد رأى محمد سرور بن نايف زين العابدين؛ في كتابه "دراسات في السيرة" أن (على هامش السيرة) هو في حقيقته على هامش الشعر الجاهلي ومتمم له. من حيث تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة.

لقد لوحظ أن طه خلط تاريخ الإسلام بأساطير المسيحية, واليهودية, وقساوسة مصر والشام وخيبر, ونصارى اليمن، كما عُنِيَ عناية كبيرة بأساطير اليونان والرومان، وخلط هذا كله خلطاً شديداً مع سيرة النَّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- وأراد بذلك إثارة جو من الاضطراب بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين ما كان قبل الإسلام من أساطير وخرافات وقد اهتم بتراث اليهود فقدم لهم قصة (مخيريق) اليهودي.. كما أخذ في كتابه بالأحاديث الموضوعة وفي نفس الوقت رد أحاديث صحيحة؛ لأنها خالفت هواه، وعوَّل كثيراً على الإسرائيليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر من إيرادها وحشد قدراً كبيراً من الأساطير في قصة (حفر زمزم) على يد عبد المطلب، وبالغ في قصة ولادة الرَّسُول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- مع أنه لم يثبت منها إلا حديث واحد, وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة (زينب بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- عند مرضعته حليمة السعدية, وأثناء سفر النَّبيّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ- في تجارة خديجة – رضي الله عنها. وقد خصَّ الشياطين باهتمام بالغ فتوسع في الحديث عنهم وصور مؤتمراً يتصدره

إبليس للشياطين, ورسم صورة للشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود وكان على شكل شيخ نجدي.

ولوحظ أيضا ندرة الصفحات التي خصصها طه حسين لسيرة الرَّسُولِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– وقد جاءت مملوءة بالمغالطات والذي سلم من التحريف كان للمتعة والتسلية.

ومن أخطر مزاعمه أن النَّبيّ قد أحبَّ زينب وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم. وطه في عرضه لقصة زواج الرَّسُول – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– من زينب –رضي الله عنها– يردد مزاعم المستشرقين الذين عجزوا عن ذكر رواية صحيحة في هذه المسألة. (راجع: محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السِّيرة النَّبَويَّة،ط 2، دار الأرقم، بيرمنجهام (بريطانيا)، 1408 هـ = 1988 م، ص (228–238).

وبصفة عامة فقد أثار ميل طه حسين إلى الأسطورة عدم ارتياح لدى نقاده الذين تفاوتت ردود أفعالهم تجاه كتابه على هامش السيرة، بين الرفض والحدة، فقد أشار الدكتور زكي مبارك إلى ما في الكتاب من رمز يغطي على أهداف الكاتب، حيث قال: "وأنا أوصي قرائي أن يقرءوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) برويّة فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل عرف الدكتور كيف يكتمها على الناس بعد أن راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف (بعد ضربة الشعر الجاهلي) آثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه" (البلاغ– يناير 1934).

وكتبت صحيفة الشهاب الجزائرية تحت عنوان: "دسائس طه حسين": ألف كتاباً أسماه على هامش السيرة (يعني السِّيرة النَّبَويَّة المطهرة) فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية, وكتب ما كتب في السيرة الكريمة على منوالها, فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال حَتَّى يخيل للقارئ أنَّ سيرة النَّبيِّ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ– ما هي إلا أسطورة من الأساطير, وفي هذا من الدس والبهت ما فيه "(ذو القعدة 1352) الموافق (1934).

وقال الدكتور "محمد حسين هيكل" في دراسة للجزء الثاني من كتاب على هامش السيرة: إن اليهود لهم باع طويل في دس الإسرائيليات في الإسلام. والحق أنني كنت أشعر أثناء قراءتي هذا الجزء الثاني من هامش السيرة, وكأنما أقرأ في كتاب من كتب الأساطير اليونانية وليس فصل (نادي الشياطين) بأشد إمعاناً في أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب, وقد عرف تبعية الدكتور "طه حسين" لمفهوم الإسرائيليات ووجهة نظر اليهود في قضايا كثيرة مثل موقفه من عبد الله بن سبأ في كتاب الفتنة الكبرى السيرة (ملحق السياسة 37/12/25).

ومهما يكن من أمر، فإن طه حسين مع قدرته التعبيرية، وأسلوبه السردي الشائق، لم يكن موفقا في اعتماد الأسطورة والإسرائيليات، لأن السيرة النبوية قبل التسلية والمتعة الأدبية تبقى تاريخا مضيئا للأجيال تعتمده في بناء المستقبل، وشحذ العزائم لانتصار الإسلام والمسلمين في معارك الاستقلال والحرية وصنع الحضارة. ثم إن الأسطورة لن تحقق طموح طه حسين في صياغة إلياذة تشبه ما لدى الغربيين، وإن كانت السيرة النبوية بذاتها أكبر من الإلياذة لما فيها من أحداث وجهاد يفوق الخيال أحيانا.

توفيق الحكيم: سيرة حوارية

يفيد توفيق الحكيم من قدرته على التأليف المسرحي وإدارة الحوار بين الشخصيات المسرحية؛ فينشئ كتابه الحواري " محمد – صلى الله عليه وسلم "على غير المألوف في كتب السيرة، ويغاير في أسلوبه، أسلوب كتبة السيرة ورواتها وقصاصيها، فهو يكتبها بصورة بعيدة- إلى حد ما- عن تدخل الكاتب، حيث يقدم صورة ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل، من خلال النصوص التاريخية الواردة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ؛ دون زيادة أو إضافة.

وحاول الحكيم قدر الطاقة أن يضع هذا في موضعه كما وقع في الأصل، ليجعل القارئ يتمثل كل ذلك كأنه واقع أمامه في الحاضر، غير مبيح لأي فاصل، حتى الفاصل الزمني، أن يقف حائلاً بينه وبين القارئ وبين الحوادث، وغير مجيز لنفسه التدخل بأي تعقيب أو تعليق، تاركاً الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة التاريخية لأحداث السيرة.

وقد كتب الحكيم هذا العمل المسرحي في منتصف الثلاثينات (1936) تحديدًا بعد كتابة عودة الروح بثلاث سنوات. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا اختار الحكيم هذا الشكل الفني (الحوار المسرحي) لكي يصنع عملاً أدبيًّا أو فكريًّا عن الرسول – صلى الله عليه وسلم؟ لماذا لم يقم بكتابة عمل نثري كما فعل من بعده عبد الرحمن الشرقاوي في "محمد رسول الحرية"، أو مثلما فعل محمد حسين هيكل في كتبه منزل الوحي وحياة محمد والفاروق عمر وغيرها من كتبه المهمة، أو مثلما فعلت بنت الشاطئ في تأريخها لزوجات النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو كما كتب طه حسين والعقاد وغيرهما، لماذا لم «يقلدهم» الحكيم في طريقة تناولهم الفكرية للسيرة النبوية؟

لعله أراد بذكائه المعهود أن يهرب من التقليد ومن كتابة السيرة لمجرد الكتابة والسلام؛ فأراد أن يختبر كتابة السيرة من خلال كتابة المسرح الذي هو فن مؤثر في الفكر والوجدان معًا. وأراد أن يثبت تميزه عن غيره ممن كتبوا السيرة النبوية في زمانه، حيث لم يسبقه أحد إلى هذه المحاولة؛ أعني الكتابة عن السيرة النبوية في القالب المسرحي، وهو قالب قريب من النفوس، ويحبب في القراءة.

العنوان الأصلي للمسرحية هو «محمد – صلي الله عليه وسلم». ويعقبه عنوان فرعي: "سيرة حوارية"، أعيد نشر المسرحية أكثر من مرة عن مكتبة الآداب، وضمن مهرجان القراءة للجميع (مكتبة الأسرة عام 1994م)،كما قام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عام 1964 بنشرها مترجمة إلي اللغة الإنجليزية.

وقد صدر الحكيم حواريته بـــ«بيان» وضح فيه أن المألوف في كتب السيرة أن يكتبها الكاتب ساردًا باسطًا، محللاً معقبًا؛ لكنه حينما فكر في وضع أو كتابة السيرة سأل نفسه هذا السؤال: إلي أي مدي تستطيع الطريقة التقليدية المألوفة أن تبرز لنا صورة بعيدة عن تدخل الكاتب وصورة ما حدث بالفعل؟

يقول الحكيم «عندئذ خطر لي أن أضع السيرة علي هذا النحو الغريب فعكفت علي الكتب المعتمدة من الأحداث الموثوق بها واستخلصت منها ما حدث بالفعل وما قيل بالفعل وحاولت علي قدر الطاقة أن أضع كل ذلك في موضعه كما وقع في الأصل وأن أجعل القارئ يتمثل كل ذلك وكأنه واقع أمامه في الحاضر غير مبيح لأي فاصل حتى الفاصل الزمني أن يقف حائلاً بين القارئ وبين الحوادث وغير مجيز لنفسي التدخل بأي تعقيب أو تعليق تاركًا الوقائع التاريخية والأقوال الحقيقية ترسم بنفسها الصورة كل ما صنعت هو الصب والصياغة في هذا الإطار الفني البسيط شأن الصائغ الحذر الذي يريد أن يبرز الجوهرة النفيسة في صفائها الخالص فلا يخفيها بوشي متكلف ولا يغرقها بنقش مصنوع، ولا يتدخل إلا بما لابد منه لتثبت أطرافها في إطار رقيق لا يكاد يري.. هذا ما أردت أن أفعل.. فإذا اتضح للناس بعد هذا العمل أن الصورة عظيمة حقًّا؛ فإنما العظمة فيها منبعثة من ذات واقعها هي لا من دفاع كاتب متحمس أو تفنيد مؤلف متعصب» (راجع؛ توفيق الحكيم، محمد رسول الله، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، المقدمة).

ولعل الحكيم أراد بذلك البيان أن يجنب نفسه المساءلة الفكرية والفنية في آن واحد، وليقول للقراء إنني أحتكم إلى النصوص التاريخية وأثبتها كما هي دون زيادة أو نقصان ليسهل عليكم التعرف على السيرة النبوية وأحداثها وشخصياتها. فكل جهده كما يفهم من بيانه هو الصياغة والبناء الحواري أو المسرحي من خلال ثلاثة فصول وخاتمة.

ومع أن الحكيم برع في البناء المسرحي، فقد قيدته فيما يبدو النصوص التاريخية وغلت يده عن التحليق في الخيال كما كان يفعل في أعماله المسرحية التي كان يأخذها من التراث أو التاريخ مثل أهل الكهف وبيجماليون وإيزيس وغيرها، حيث كان يحلق في صياغة البناء المسرحي وإحكامه وإثارة التشويق من خلال الصراع والحبكة ونحو ذلك، ولكن التزامه بالأحداث المدونة في السيرة

النبوية جعل المسرحية تبدو ضعيفة إلى حد ما بالنسبة لأعماله المسرحية الأخرى، وإن كان قد حقق سهولة ويسرا في تقديم السيرة للقارئ.

وتدور أحداث المسرحية – الحوارية منذ أن تلقي أبو طالب بشارة مولد محمد –صلى الله عليه وسلم– حتى وفاته، وتعتمد على البناء التقليدي: البداية والوسط والنهاية وتتحرك الأحداث من البداية حتى الخاتمة في مناظر سريعة متتابعة تقطع الزمن الطويل الذي استغرقته أحداث السيرة النبوية.

مناظر الأحداث تضم خديجة والهجرة إلى الحبشة والنجاشي والهجرة إلى يثرب وفتح مكة وانتصار الإسلام ونزول ملك الموت والنبي –صلى الله عليه وسلم– يرقد على الفراش في مرضه الأخير. وها هو المشهد الذي صاغه الحكيم لرحيل خير الأنبياء قبيل قبض روحه !

(جبريل! (يشير إلي ملك خلفه):

يا أحمد هذا ملك الموت يستأذن عليك و لم يستأذن علي أدمي كان قبلك ولا يستأذن علي أدمي بعدك.

محمد: ائذن له.

ملك الموت: يا رسول الله يا أحمد، إن الله أرسلني إليك وأمرني أن أطيعك في كل ما تأمرني وإن أمرتني أن أقبض نفسك فقبضتها وإن أمرتني أن أتركها تركتها.

محمد: وتفعل يا ملك الموت؟

ملك الموت: بذلك أمرت بأن أطيعك في كل ما أمرتني.

جبريل: يا أحمد إن الله قد اشتاق إليك.

محمد: امض يا ملك الموت لما أُمرت به.

جبريل: السلام عليك يا رسول الله، اليوم آخر عهدي بهبوط الأرض (يرتفع الملكان ويتركان محمد جثة هامدة).

وهكذا تنتهي السيرة كما كتبها توفيق الحكيم، وبالطبع كان من الصعب نقلها إلى خشبة المسرح، وتقديمها في عمل مسرحي يجسده ممثلون، وموسيقى، وإضاءة، لأسباب شرعية تمنع تجسيد شخصية النبي – صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم والملائكة، لقد كتبها الحكيم للقراءة أساسا، لذا لم يفكر أحد في تقديمها مسرحيا.

عبد الحميد جودة السحار: محمد رسول الله والذين معه

يعد عبد الحميد جودة السحار من أهم من كتبوا السيرة النبوية قصصيا وأغزرهم إنتاجا، فضلا عن مشاركته في كتابة بعض الأفلام السينمائية التي تؤرخ للدعوة الإسلامية منها فجر الإسلام والرسالة، ومع أنه اهتم في بداية حياته الأدبية بالتاريخ المصري القديم والتاريخ الأندلسي حيث كتب روايته الأولي "أحمس بطل الاستقلال عام 1943 وهو في سن الحادية والثلاثين من عمره"، ثم كتب روايته الثانية "أميرة قرطبة "؛ فإنه اتجه إلي كتابة الإسلاميات، حيث كتب:

أبو ذر الغفاري – بلال مؤذن الرسول – سعد بن أبي وقاص – أبناء أبي بكر – محمد رسول الله والذين معه الذي صدر في 20 جزءا وعرض دراميا في التليفزيون المصري تحت اسم "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فنال صاحبه من خلاله شهرة واسعة. ثم كتب في السيرة النبوية أيضا: حياة الحسين، حياة محمد، إلى جانب ما كتبه عن قصص الأنبياء، وقصص الأطفال التي تقدم السيرة في إطار مبسط، فضلا عن رواياته الاجتماعية والسياسية، وقصصه القصيرة، وكتبه المنوعة الأخرى. (راجع ما: صفوت يوسف زيد، التيار الإسلامي في قصص عبد الحميد جوده السحار، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، 1985م)

كان السحار يرى أن تطوير الثقافة العربية مرهون بقدرتنا على محاورة تراثنا والاستضاءة به، يقول: لقد أحسست أن التراث الإسلامي والثقافة العربية يمثلان شيئا مهما وجوهريا داخل حلقات التطور الفكري لمصر عبر العصور، إنه لا يمكن تطوير الأدب، وتطوير الثقافة المصرية دون العودة إلى استلهام هذا التراث، وتحقيقه على المستويين الفكري والفني، لذلك كتبت العديد من الأعمال القصصية بعد محاولة هضم هذه الألوان من الثقافة الإنسانية بشكل عام).وقد بين محمد جبريل في كتابه (السحار: رحلة مع السيرة النبوية، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت.) أن السحار قد أصدر العديد من المجموعات القصصية والروايات التي تغطي جوانب مختلفة في حياتنا الاجتماعية، وتسلط الضوء على سلبياتها من زوايا أخلاقية، لكن العناية بالتاريخ الإسلامي كانت –في الحقيقة– شاغل السحار منذ بدايات حياته الأدبية سعيا لكتابة أهم أعماله وأخطرها، وهو السيرة النبوية المعنونة بـــ (محمد رسول الله والذين معه) وفيها يتناول سير الأنبياء منذ آدم أبي البشر عبورا بإبراهيم أبي الأنبياء– حتى وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في عشرين جزءا كبيرا يبلغ مجموع صفحاتها حوالي عشرة آلاف صفحة. ويضيف: (إن الإنجاز الأهم للسحار– باعترافه– هو السيرة النبوية، التي أعطاها معظم عمره، قرأ وقارن ووازن وثبت آراءه، ورفض آراء مناقضة وقدم عملا موسوعيا، أثق أنه هو ما سيبقى من أدب السحار).

وقد أطلق السحار على السيرة النبوية التي كتبها (محمد رسول الله والذين معه) مع أنها تتضمن تاريخ الأنبياء جميعا؟ يؤكد السحار: (أن الإسلام– منذ بدء الخليقة– هو دين الله، دعا إليه

الرسل والأنبياء.. وهو ما يؤيده قول الله تعالى: "إن الدين عند الله الإسلام"(آل عمران: 9)، وقوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه "(آل عمران: 85)، ولهذا كتب السحار السيرة النبوية بدءا منذ بداية الوجود البشري.

وإلى جانب هذا العمل الضخم في السيرة النبوية، فقد كتب السحار: القصص الديني للأطفال كما سبقت الإشارة في العديد من الأجزاء، خصص منها عددا لقصص الأنبياء بالاشتراك مع الكاتب الراحل سيد قطب، وعددا لقصص السيرة، وعددا آخر لقصص الخلفاء، بالإضافة إلى سلسلة (العرب في أوروبا).

السحار وفيلم " فجر الإسلام "

كتب عبد الحميد جودة السحار قصة فيلم "فجر الإسلام -1971" وشاركه صلاح أبو سيف في كتابة السيناريو، يتناول ما جرى في مطلع الدعوة حتى انتصار الإسلام، ويعد من الأفلام المهمة في تاريخ السينما المصرية، ويتكرر عرضه في المناسبات الإسلامية على مدار العام. وتصور قصة الفيلم ما كان عليه الناس في الجاهلية من انحلال خلقي وانحطاط عقلي وسيطرة للخرافات، إلى أن ظهر الدين الإسلامي في مكة، وكان من بين من آمن به ابن شيخ قبيلة من القبائل الواقعة بين مكة والمدينة، والذي بدوره راح يدعو قبيلته إلى هذا الدين الجديد. حينها قام صراع بين الجيلين الجديد والقديم، الجيل الذي يتطلع للنهوض بالحق والجيل الذي يتمسك بالقديم الباطل.

وقد ساعد على نجاح الفيلم ما يتمتع به السحار من موهبة فنية ودراية علمية وتاريخية بالسيرة النبوية، مما جعل (فجر الإسلام) فيلماً جيدا على المستوى الروائي، والمستوى العلمي والتاريخي.

ويعد (فجر الإسلام) أول فيلم إسلامي يخرجه صلاح أبو سيف، الذي عرف مخرجاً واقعياً من قبل، في أفلام تعالج الواقع الاجتماعي أو السياسي. أما في (فجر الإسلام) فإنه يقدم موضوعاً جديداً، عن ظهور الإسلام والصراع بين المسلمين والمشركين.

محمد عبد الحليم عبد الله: الباحث عن الحقيقة

قال لي محمد عبد الحليم عبد الله أواخر عام 1967أو أوائل عام 1968، إنه بعد وفاة والده مر بتجربة حزن عميق، اهتدى بعدها لكتابة روايته الباحث عن الحقيقة بعد أن زوّده مساعدوه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بالمراجع اللازمة عن حياة الصحابي الجليل الذي ملأ عليه مشاعره وعواطفه، ووجد في سيرته سلوى وعزاء، فكتب الرواية في وقت قياسي، في أسلوب يقطر شعرا،

معبرا عن رحلة من الرحلات التاريخية النادرة قام بها سلمان الفارسي بحثا عن الحقيقة واليقين حتى وجدهما عند نبي الإسلام – صلي الله عليه وسلم.

تشبه رواية الباحث عن الحقيقة رواية قاتل حمزة في تركيزها على الشخصية الرئيسية، سلمان هناك، ووحشي هنا. ومن خلال استبطان الشخصية في الروايتين يكتشف القارئ ما تحمله الشخصية من انفعالات وأشواق ومفارقات..

كتبت عن الباحث عن الحقيقة فصلا في كتابي "الرواية التاريخية في أدبنا الحديث – قراءة تطبيقية"، وأكتفي هنا بالإشارة إلى أن الرواية تقدم السيرة من خلال شخصية سلمان، حيث يتمرد على والده (الدهقان) الذي كان حاكما للقرية التي يعيش فيها، وأراد أن يجعل ابنه سلمان خادما لمعبد النار أو بيت النار كما كان يسميه المجوس الفرس، ولكن الفتي الذي كان أحب الناس إلى أبيه يداخله الشك في عبادة قومه، ويقرر الهروب من بيت النار ومن القرية ومن فارس كلها، وتحمله الرحلة من بلاد إلى أخري يلتقي فيها برهبان منهم الصالح والطالح، ولكنه لا يجد عندهم ما يشبع يقينه أو يصل به إلى الحقيقة، وهي الإيمان بالله خالق الأرض والسماء، ويتعرض في رحلته للاسترقاق والمعاناة والآلام، فيباع بوصفه عبدا لأحد اليهود وتحط به الرحال أخيرا في يثرب (المدينة المنورة) وهناك يتعرف إلى الإسلام ويتحول إلى صحابي حر يعبد ربه الواحد الأحد ويؤدي دورا جليلا في الجهاد وخدمة الإسلام، لدرجة أن جعله النبي –صلى الله عليه وسلم– من قومه: "سلمان منا آل البيت" تقديرا لمكانته ودوره في خدمة الإسلام.

لقد التزم محمد عبد الحليم عبد الله بالحقائق التاريخية الثابتة فيما يتعلق بشخصية سلمان وتطور شخصيته؛ فضلا عن التزامه بحركة السيرة النبوية كما وردت في التاريخ، وإن كان التفوق الأدبي في الرواية يكمن في الأسلوب الذي وصل إلى مرتبة الشعر في بعض الصفحات، وقد أشرت إلى ذلك في دراستي المشار إليها عن الرواية في كتابي "الرواية التاريخية...".

لقد ركزت الرواية بأسلوبها الشاعري على دخيلة سلمان الباحثة عن اليقين والراغبة في السلام وإحساسه المرهف بإنسانية الإنسان، ورفضه لما حوله من مظالم مذ كان في كنف أبيه ورعايته، يدل على ذلك مواقف عديدة وردت في السرد..

تأمل وصفه لسلمان في بداياته وهو شاب في بيت النار:

" رائحة بخور نادرة تملأ نفسه، وهمهمات من أدعية تملأ أذنيه، لكن قلبه الليلة يملؤه الشك. شاب باهر العود صحيح الجسم دائم التأمل، له حواجب غزيرة مقرونة توحي بالقوة، وبين الحاجبين تقطيبة تشكو في صمت، شكوى النفس للنفس، حركة الشك التي تبحث عن اليقين... وعلى التل

يقع ''بيت النار'' معبدهم المقدس، الذي خرج منه هذا الشاب المجوسي لتوه وأخذ يهبط التل في أنفه رائحة بخور وفى أذنيه أدعية مهموسة، وصورة لخدام المعبد... ''

'' هذا الشاب ابن دهقان القرية.. أبوه رجل قصير غليظ شديد الوطأة على الناس كثير الحب لأبنائه. ولم يكن في حياته شيء أغلى ولا أعز من هذا الابن. لم يكن يناديه باسمه بل كان يناديه دائمًا يا ''أنا'' والإنسان لا ينادي نفسه علنًا. لذلك كان يحبه قدر ما يحب الدنيا مضافًا إليها نفسه ''.

ثم تأمل موقفه بعد أن أمره أبوه أن يذهب فورا إلى الضيعة "واستجاب الابن لأمر أبيه وفى طريقه إلى الضيعة ظن أنه وجد الحقيقة، وها هو يخبر أباه بذلك: ''وجدت الله في كل مكان سرت فيه''.

....

ثم سأل الأب: ووجدته عند رعاة الخنازير؟

- نعم إنه رب المساكين.. ووجدته على صورة جديدة، على صورة الحق 0 ليس في النار التي حرمتم على الشمس أن تراها، وليس في الشمس التي غلبتها النار على سلطانها في المعابد.

ليس في شيء من هذا..

....

- هناك على بعد عشرة أميال.. رأيت النصارى يصلون.. فدخلت عليهم.. فأعجبني ما يقولون.. ".

فما كان من الأب بعد أن حاول إقناعه بفساد عقيدة النصارى وصحة عقيدة المجوس إلا أن قال: ".. لقد كنت حجة المجوس وفخر هرابذتهم (يقصد علماء الدين المجوس).. كفاك.. يا بوران الغالية.. هاتي أغلظ قيد من الحبال لأضعه في يدي ورجلي من كنت أناديه (أنا)".

لقد كان سلمان إنسانا يشعر بالآخرين وآلامهم، ولو كانوا في مستوى الخدم. كان أبوه يجلد رجلا، فتقدم إليه ضارعًا:

"- أبي !

فتوقف الرجل عما كان فيه، ثم هتف وهو يلهث وأطرافه ترتعد:

- هل.. جئت.. يا ''أنا''..؟

هتف الشاب بينه وبين نفسه وهو يهز رأسه وعيناه تفيضان بالدمع: " أخطأت.. لم يعد اسمي كذلك.. أصبحت رجلاً غيرك.. ورجلاً غير نفسي.. بل ربما كنت نفس هذا الرجل الذي تجلده.. أصبحت أحس وقع السياط عليهم.

وتقدم الشاب من الرجل المتروي عند باب الحظيرة واحتضنه ففاحت منه رائحة سماد وروث. ولاذ الرجل بين أحضانه كأنه لمس إنسانًا لأول مرة.... "

... ثم سأله الدهقان:

" ماذا فعلت؟

همس الابن كالمأخوذ:

– ولماذا تجلده؟

رد الأب صارخًا:

– مات اليوم تحت يده ثلاثة خنازير.. فماذا لو مات هذا الرابع؟

– إنه لا يدخل في العدد يا.. "وتنحنح".. لأنه إنسان. (راجع: محمد عبد الحليم عبد الله، الباحث عن الحقيقة، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت، ص 7 –19).

لقد تقدمت الرواية لتحتل مكان القصيدة في تصويرها للمشاعر الإنسانية التي كان يحملها سلمان الفارسي حتى صار صحابيا جليلا وجنديا من جنود الدعوة، نفهم من خلاله كثيرا من ملامح السيرة النبوية وحركتها وتطورها، دون أدنى خلل بوقائع السيرة وحوادثها وشخصياتها.

ثانيا: نجيب الكيلاني والسيرة النبوية

نجيب الكيلاني

أخلص نجيب الكيلاني للسيرة النبوية فكتب مجموعة من الروايات والقصص القصيرة التي تناولت جوانب عديدة وفترات محددة من السيرة النبوية صاغها بأسلوبه الروائي الشائق، ليقربها إلى القراء، ملتزما في ذلك بحقائق التاريخ الثابتة المتفق عليها، ولم يتدخل بأي تصرف يخرج الأحداث عن سياقها التاريخي، وفقا لمنظوره الذي سنشير إليه بعد قليل.

ويمكن القول إن الكيلاني كان شغوفا بالسيرة في أدبه بصفة عامة، فلم يكتب رواية واحدة أو قصة واحدة، ولكنه كتب عددا كبيرا من الروايات والقصص، فضلا عن الشعر الذي ضمته ما

يقرب من عشر مجموعات شعرية كانت فيها شخصية الرسول — صلى الله عليه وسلم — وسيرته وأخلاقه وسلوكه وأقوله حاضرة في كثير من القصائد والأشعار.

كتب نجيب الكيلاني روايات وقصص: نور الله (جزآن)، رجال الله، على أبواب خيبر، قاتل حمزة، عمر يظهر في القدس، والأخيرة كتبت عنها دراسة مطولة، في كتابي (الرواية التاريخية...). كما كتب العديد من الروايات الأخرى التي تعتمد التاريخ العربي الإسلامي القديم والحديث.

وقد جاءت روايات السيرة النبوية التي كتبها الكيلاني، في سياق عام يهتم بالتاريخ الإسلامي الذي مرت به الأمة الإسلامية منذ البعثة المحمدية، حتى التاريخ الحديث وما جرى للأمة الإسلامية في العديد من الأماكن بدءا من العالم العربي إلى امتداد العالم الإسلامي في الصين ودول آسيا الوسطى والحبشة ونيجيريا والبوسنة والهرسك.

وسوف أشير إلى رؤية نجيب الكيلاني في كتابة السيرة والتاريخ روائيا وقصصيا، وبعدها أعرض لبعض رواياته التي تناولت السيرة النبوية أو استلهمتها، ولكن قبل ذلك أقدم للقارئ نبذة موجزة عن حياة الرجل؛ ليكون على وعي بطبيعة الكاتب الذي نقرأ أعماله في هذه الدراسة القصيرة.

ولد الدكتور نجيب الكيلاني في أول (يونيو) عام 1931م بقرية (شرشابة) مركز ميت غمر،محافظة الغربية بمصر، وحفظ القرآن الكريم في الكتّاب، وتعلم القراءة والكتابة والحساب وقدراً من الأحاديث النبوية الشريفة وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم- وقصص الأنبياء وقصص القرآن.

وأصدر أول مجموعة شعرية من نظمه وهو في المرحلة الثانوية.. ثم بدأ كتابة القصة في المرحلة الجامعية، وكان متأثراً فيها بحياة أهل القرية وأخلاقهم، وخاصة علماء الدين الذين كان يجالسهم، كما كان متأثرا بالشاعر الإسلامي الأشهر "محمد إقبال"، وانبهر بكتاباته التي ترجمها "عبد الوهاب عزام" من الأردية والفارسية إلى العربية.

ينتمي الكيلاني إلى أسرة ريفية تعمل بالزراعة، وكان يساعد الأسرة في الحقل، وقضى المرحلة الثانوية في مدينة (طنطا) عاصمة محافظة الغربية، ثم التحق بكلية طب القصر العيني (جامعة القاهرة) عام 1951م، وفي السنة الرابعة بالكلية، قدم للمحاكمة في إحدى القضايا السياسية بسبب انتمائه إلى الإخوان المسلمين وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، وفي تلك الفترة جمع ديوانه الشعري (أغاني الغرباء)، ثم كتب روايته الأولى (الطريق الطويل) التي فازت بجائزة وزارة التربية، ونشرتها وزارة الثقافة والإرشاد آنذاك، وقدم لها "فتحي رضوان وزيرها حينئذ"، ثم قررتها وزارة المعارف

على طلبة التعليم الثانوي في عام 1959م، وفي المسابقة نفسها فاز بجائزة التراجم والسير عن كتابه (إقبال الشاعر الثائر) 1957م.

وفي عام 1958 فاز مرة أخرى بعدد من جوائز وزارة التربية والتعليم، ففي مجال الدراسات النفسية والاجتماعية فاز كتابه (المجتمع المريض) وهو دراسة متميزة عن مجتمع السجون، وفي مجال التراجم والسير فاز كتابه (شوقي في ركب الخالدين) وفي مجال الرواية فازت قصته (في الظلام)، كما فاز بجائزة مجلة "الشبان المسلمين" في مسابقة القصة القصيرة التي أعلن عنها عام 1957، وفي عام 1959 فاز بجائزة القصة القصيرة بنادي القصة، والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين، كما فاز في العام التالي بجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والأدب عن روايته (اليوم الموعود) التي قررت على طلبة المرحلة الثانوية عام 1960م، وأخرجت مسلسلاً إذاعياً في عام 1973 بإذاعة الكويت، وقد أعدت مسلسلا تلفزيونيا (من إنتاج ليبي مشترك) لتعرض في شهر رمضان (1414هـ) تحت اسم (ياقوتة ملحمة الحب والسلام) والرواية تدور أحداثها حول الحروب الصليبية أيام الملكة شجرة الدر.

وتعد الدعوة إلى قيام أدب إسلامي منذ أواخر الخمسينيات من أهم إسهامات الكيلاني في الأدب المعاصر، في إطار من الإدراك الواعي، والفهم المضيء، لماهية هذا الأدب ورسالته وأهدافه البناءة، وخدمة الأمة الإسلامية والعالم أجمع، دون تعصب أو جمود، مع الحفاظ على القيم الجمالية والإنسانية الصحيحة التي نادى بها الرسول – صلى الله عليه وسلم. وقد أصدر الكيلاني في هذا المجال عدداً من الكتب النظرية وعدداً من الإبداعات الفنية التطبيقية في الرواية والقصة والشعر، وشارك بصورة أساسية فعالة في مؤتمرات الأدب الإسلامي التي عقدت في المملكة العربية السعودية كما شارك في العديد من الندوات والمحاضرات حول هذا الموضوع طوال ربع قرن قبيل وفاته، وقد ترجمت معظم مؤلفاته إلى اللغات التركية والأردية والفارسية والإندونيسية والإنجليزية والإيطالية والروسية والسويدية وغيرها.

ويعد الكيلاني أول من اهتم بالمسلمين المعاصرين ومشكلاتهم في أعماله الروائية، فقد أصدر (ليالي تركستان) عن مسلمي الصين، و(عذراء جاكرتا) عن مسلمي إندونيسيا، و(عمالقة الشمال) عن مسلمي نيجيريا، و(الظل الأسود) عن مسلمي أثيوبيا، و(الرجل الذي آمن) عن مسلمي أوربة الذين يتعرفون على الإسلام من خلال الدعوة.

اهتم الكيلاني في رواياته وقصصه وشعره بصفة عامة، بقضايا الإنسان كالحرية والكفاية والعدل والتسامح، وأحاط في براعة بتفاصيل ودقائق الحياة في السجون، ومشاعر المقهورين ومعاناتهم في أنحاء العالم الإسلامي، وكان أدبه موضوعا لدراسات نقدية وأدبية عديدة على امتداد

العالم الإسلامي، ونوقشت مجموعة كبيرة من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات مصر والعالم العربي والإسلامي وبعض الجامعات الأوربية. وكتبت عنه كتابي "الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني" بالإضافة إلى مجموعة من الدراسات الأخرى حول رواياته وشخصيته الأدبية والإنسانية.

وفي 1415/10/5هـ الموافق 1995/3/6م توفي الدكتور الكيلاني بعد مرض عضال عانى منه أشد المعاناة، وكان في أثناء مرضه مثال المؤمن المحتسب، بعدما خلف تراثاً أدبياً كبيراً، وترك فكرة لثلاثين رواية إسلامية، دوّنها في نوتة صغيرة عن مشكلات المجتمع المسلم، ولكنه لم يستكملها بسبب المرض والوفاة.

الكيلاني والسيرة

مثل أي طفل ريفي يعيش في قرى مصر، ارتبط الكيلاني بالسيرة النبوية من خلال المداحين الذين كانوا ينشدون في المواسم الإسلامية سيرة النبي – صلي الله عليه وسلم.

كانت ظاهرة الإنشاد والمديح النبوي شائعة في مصر منذ قرون، حتى أخذت في الضمور والتراجع مع نهايات القرن العشرين، لأسباب عديدة ليس مجال سردها هنا، وفي ذكرى المولد النبوي كانت تقام احتفالات شعبية وتسير المواكب تدور حول القرى وفي شوارع المدن، وكان ذلك يملأ شعور الأطفال والكبار بمزيج من النشوة والسعادة والصفاء، وقد انقرضت هذه الاحتفالات للأسباب التي تراجع بسببها الإنشاد بالسيرة والمديح النبوي، وقد عبر نجيب الكيلاني عن هذه المشاعر في مقدمة مجموعة "رجال الله" التي ضمت عددا من القصص التاريخية بعضها يتناول بعض الصحابة وسيرتهم أهداها إلى الشباب المؤمنين المنافحين من أجل الحرية والمكافحين في سبيل الدين، وهؤلاء الشباب موجودون في أرجاء العالم الإسلامي، وكانوا يراسلون الكاتب، وملأت رسائلهم نفسه ثقة ورضا، وجعلته يطمئن على مستقبل أمتنا الخالدة، وذلك الدين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى" (الكهف: 13).

لقد كانت النماذج التي تناولها الكيلاني في هذه المجموعة ترتبط بقضايا المجتمع ومشكلاته، وتستلهم الهدى النبوي في مواجهة ما يعترض حركة المجتمع الطبيعية، وتعبر من خلال الروح الإنساني العام عن رحابة الإسلام واتساع سماحته لتشمل الناس جميعا في كل زمان ومكان.

بعض هذه النماذج ينتمي إلى العصر النبوي مثل سعد بن أبي وقاص، وأبي خيثمة، وأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، وبعضها يمت بصلة إلى مرحلة الخلافة الأموية والخلافة العباسية، وهناك ما

ينتسب إلى العصر الحديث، ولكنها في مجملها، تسعى إلى استلهام الروح الإسلامية النقية التي كانت سائدة في عصر النبوة، لبناء المجتمع المعاصر وتنميته وتطويره إلى الأفضل.

ويرى الكيلاني أن الواقع التاريخي – ومنه السيرة النبوية بصورة ما – لا يقل روعة أو أهمية عن الواقع الراهن، فكلاهما مادة للقصاص يستطيع أن يضمنها ما يراه. وقد تناول من أحداث التاريخ وشخصياته لمحات معبرة أو زوايا خاصة حسب ما يقتضيه فن القص، وقد يضطره القص إلى قليل من السرد في مواضع يسيرة يقتضيها الحدث وظروفه دون إخلال بالوقائع الثابتة. وهو في كل الأحوال لا ينسى البعد الداخلي للشخصيات وتصوير انفعالاتها النفسية، وثورتها الباطنة (سنرى ذلك بوضوح في قاتل حمزة)، ومدى استجابتها لطبيعة الإنسان ومجريات الحوادث والظروف التاريخية (راجع: نجيب الكيلاني، رجال الله،كتاب المختار، القاهرة، 2008، المقدمة). ويلاحظ أن الكيلاني نشر هذه المجموعة في حياته تحت عنوان "دموع الأمير" نشر عن مؤسسة الرسالة في بيروت، ولدي الطبعة الثالثة التي صدرت عام 1405 هـ = 1985م. ولعل الناشر هو الذي غير العنوان في النشرة التي صدرت بعد وفاة كاتبنا.

يقدم نجيب الكيلاني، السيرة النبوية كاملة عبر روايته "نور الله" في جزئين، ويذكر في فاتحة الرواية زمن الرواية: أيام بعثة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومكان الرواية: مكة المكرمة والمدينة وديار بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير، وشخصيات الرواية: محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – وأبو بكر وعمر وسعد بن معاذ وأبو سفيان وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليه عليهم، وعبد الله بن أبي رأس المنافقين في المدينة، وكعب بن الأشرف، شاعر يهودي متآمر على الدعوة، وحيي بن أخطب وسلمان الفارسي وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم من الشخصيات التي كانت حاضرة في مرحلة الدعوة وصراعاتها مع قريش واليهود وأهل الطائف.

وفي الرواية نبدأ مع المسلمين المستضعفين في مكة وهم يحاولون الهجرة هربا بدينهم إلى الحبشة ثم المدينة المنورة حتى الفتح الأكبر وتحطيم الأصنام التي كانت حول الكعبة.

ويشير نجيب الكيلاني إلى أن تناول فترة عصر النبوة مهمة عسيرة وشاقة لأن فجر الإسلام مليء بالبطولات والأحداث، وإذا كان الأمر يبدو سهلا بالنسبة لكاتب التاريخ فهو صعب بالنسبة للروائي؛ فإنه يقع في حرج بالغ، وتهيب شديد بسبب متطلبات الرواية من الحوار والتشويق أو ما يسميه التوابل والمشهيات المطلوبة في الطعام، ولعلها تمثل الفارق الحاسم بين الرواية وكتابة التاريخ.

قد يكون الأمر مختلفا عند الغربيين حيث لا تمنعهم أية قيود من تناول ما يريدون أو يجعلون التاريخ مشجبا يعلقون عليه لوحاتهم كما يقول بعضهم. وقد كانت تجربة جرجي زيدان ولجوئه إلى

الأسلوب الغربي في كتابة رواياته التي استقاها من التاريخ الإسلامي مليئة بالعوار والسوءات الموضوعية والفنية.

ويحرص الكيلاني على الحدث بوضعه التاريخي بوصفه العمود الفقري لأية رواية، ولكنه يحرص أيضا على تقديم الانعكاس النفسي للأحداث الضخمة، الذي يلمع على صفحات النفوس الطاهرة والشريرة، المؤمنة والكافرة، لأن الأحداث موجودة في المجلدات، أما التوترات النفسية، والقلق الخالد والإيمان الصامد.. فهي أشياء يجد الروائي الجاد فيها بغيته، وينطلق فيها قلمه مع تجاهل أكثر المؤرخين لها..

إن كتاب الرواية الهادفة، والأدب الملتزم، قد يرون أنفسهم حائرين بين السبك الفني، والهدف العقدي، فإذا غرق الكاتب في إغراءات الفن وشروره فقد يضر بالهدف الأسمى، وإذا ركز على الهدف وتجاهل متطلبات الفن، تحول العمل الأدبي من رواية إلى شيء آخر غير الرواية، ومن ثم لا مفر أمام الكاتب الروائي من إدارة لقاء مخلص ممتع بين الفن والهدف فيمضيان معا متكاتفين متصافحين في هذا الطريق المقدس. (راجع: نجيب الكيلاني، نور الله، ج1، ط 20، كتاب المختار، 2005، المقدمة).

وقد سار نجيب في كتابة رواياته وقصصه التي تناولت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي في علاقة متوازنة بين الحقائق التاريخية والمتعة الفنية، دون إخلال بالتاريخ، أو إغراق في الناحية الفنية.

على أبواب خيبر

تهتم هذه الرواية بتقديم النفسية اليهودية التي تمتلئ بالحقد والضغينة والغدر ولا تكف عن المؤامرات والدسائس والخيانات، وكان فتح خيبر مناسبة مهمة للتعبير عن طبيعة هذه النفسية من خلال شخصياتها وأحداثها، فقد كان على بن أبي طالب من الفرسان الذين أبلوا بلاء حسنا في قتال اليهود المتحصنين وراء الجدران والحصون، ظنا أنها تحميهم، ولكنها سقطت وانهارت بعد أن بدأ على بن أبي طالب خلع باب الحصن واقتحامه لتترنح قلاع الغدر والخيانة، ويستسلم أهلها أمام ضربات المسلمين واستبسالهم.

لقد كان المسلمون يتعايشون مع اليهود في المدينة (يثرب) مع ما يحمله هؤلاء من حقد وضغينة ومكر، ولم يتعلم يهود خيبر من يهود المدينة معنى المسالمة، وآثروا أن يوقدوا نار العداوة والبغضاء والدماء، وسقطت خيبر !ومن خلال شخصيتين نسائيتين صفية بنت حيي بن أخطب، وزينب بنت الحارث نتعرف على نموذجين الأول يُعمل عقله ويستجيب لداعي الهدى، والآخر ينحاز إلى تعصبه وعناده وهواه فيعيش في ظلمات الجهل والضلال.

صفية بنت حيي بن أخطب، ترى حلما يتحقق، فقد رأت القمر الذي أنار لها حياتها. لقد أنقذها عقلها من الضلال. تلك المرأة اليهودية التي قال عنها الرسول – صلى الله عليه وسلم- لزوجه عائشة التي وصفتها بأنها يهودية: لا تقولي هذا فقد أسلمت وحسن إسلامها.

وفيما بعد وجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخدها لطمة فقال: (ما هذه؟)، فقالت: إني رأيت كأن القمر أقبل من يثرب، فسقط في حجري، فقصصت المنام على ابن عمي ابن أبي حقيق؛ فلطمني، وقال: تتمنين أن يتزوجك ملك يثرب؟ فهذه من لطمته. وكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد تزوجها، وكان يهدف من زواجها إعزازها وإكرامها ورفع مكانتها، إلى جانب تعويضها خيراً ممن فقدت من أهلها وقومها في غزو خيبر، مع إيجاد رابطة المصاهرة بينه وبين اليهود؛ لعله يخفّف من عدائهم، ويمهد لقبولهم دعوة الحق التي جاء بها. (راجع: نجيب الكيلاني، على أبواب خيبر، ط1، دار البشير، عمّان، - 2001).

أما زينب بنت الحارث التي استسلمت لحقد قلبها، وغطرسة عقلها، فقد ضيعت دنياها وآخرتها. بل ضيعت دينها قبل ذلك حين أغرت عبدا بهواها وفعلت معه الفحشاء ظنا منها أنها تتملكه ليقتل محمدا ويشفي غليلها؛ ففشلت. قتلت عبدا ثم أسلم العبد الآخر ثم قُتِل أهلُها. حملت نفسها كل هذه الآثام وهي المرأة صاحبة المكانة في قومها لأجل حقدها ! ثم تظاهرت بالإسلام وقدمت الطعام المسموم للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – فعرف الرسول – صلى الله عليه وسلم- ثم مرض مرضه الأخير، ولحق بالرفيق الأعلى.

وتخلص الرواية إلى بيان حكمة الإسلام في تخليص النفس البشرية من نوازع الحقد والضغينة والخداع، والعيش في ظلال السلام والأمن والرضا بمعية الله.

عمر يظهر في القدس

تناولت هذه الرواية في كتابي "الرواية التاريخية في أدبنا الحديث – دراسة تطبيقية"، وخصصت لها فصلا طويلا، يعالجها من الناحية الفنية والأدبية.

وفي الرواية نرى عمر رضي الله عنه قد ظهر في القدس المحتلة عقب هزيمة 67، ليوجه المسلمين إلى كيفية تحريرها من قبضة العدو الصهيوني.

لقد تم استدعاء عمر عبر الحلم الذي رآه أحد الفدائيين، حيث يقدم منهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في مواجهة الأحداث الصعبة، ويوضح من خلال تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف وسلوك الصحابة رضوان الله عليهم طريقة بناء المجتمع المسلم القوي الذي يجاهد من أجل العزة والكرامة والحرية.

وقد قدّم نجيب الكيلاني للرواية في صفحتها الأولى بـــ (كلمة قصيرة) قال فيها: (أعرف أن هذه الرواية قد تثير عديداً من التساؤلات الفنية والفكرية والعقائدية، وذلك لطرافة فكرتها وخروجها عن المألوف، ولكن الكابوس الذي جثم على روح الأمة، وموجة الألم العارمة... قد فجرت ينابيع متباينة المذاق، ومهدت الطريق أمام رؤى عديدة بعضها زائف مضطرب، وبعضها أصيل غني بالخصوبة والحياة والقوة). (نجيب الكيلاني، عمر يظهر في القدس، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1408هـ = 1988م).

وقد ارتبطت القدس بعمر رضي الله عنه، فقد فتحت في عهده، وتحررت من قبضة الرومان، وكتب لأهلها العهد الشهير، ورفض الصلاة في كنيستها، ثم هو نموذج للانتصار دائما والشجاعة الإسلامية، في مواجهة الهزائم والانكسارات. وقد التزم الكاتب فيما يتعلق بعمر وقائع التاريخ الثابتة، وأقواله المنسوبة إليه، وكلها جزء من السيرة النبوية.

عبر عمر – رضي الله عنه – عن سعادته لزيارة القدس حين قال الرواية:

"يا لجمالها !! لقد زرتها في حياتي , ووضعت جبهتي على ترابها وأنا أسجد لله.. لترابها عبير لم يزل عالقاً بأنفي..ولها ذكريات.. وحاولت زيارتها مرة أخرى لكني لم استطع.. كان الوباء متفشياً فيها.. وقررت يومها الرجوع. وقال قائدنا الهمام أبو عبيدة بن الجراح محتجاً: أتفر من قدر الله يا عمر؟! وقلت له: نفر من قدر الله إلى قدر الله.. وكان نبينا – صلى الله عليه وسلم – قد أوصانا بألا نخرج من أرض أصابها الوباء (وهكذا رجعت).

واندفع المحاور باكياً وهو يقول:

يا أمير المؤمنين.. إن بالقدس وباء خطير...

يهتف سيدنا عمر بإشفاق:

الطاعون؟؟؟

ـــ الطاعون يقضي على عدد من الناس.. لكن الوباء الآن يقضي على شعب.. وتاريخ.. وقيم كبرى.. في القدس اليوم الإسرائيليون آفة العصر وحاملو ألوية الغدر والحقد والدمار... "

ومن خلال تجوال عمر في أرجاء القدس يواجه مواقف عديدة على المستوى العام والشخصي، ولكنه يقدم الدليل العملي الذي يؤدي إلى تحرير القدس، وهو منهج الإسلام الذي وضعه نبي الرحمة وإمام المجاهدين عليه الصلاة والسلام.

وتستعرض الرواية أيضاً أحداث الساعة والحياة اليومية وسيدنا عمر يواكبها مستغرباً من تفشي المفاسد والمجون والخمر في قارعة الطريق وتشبه المسلمين بالمشركين وظهور دولة لليهود وضعف المسلمين وخنوعهم...... وتستمر الأحداث التي يقف عمر عند تفاصيلها.. ويضع عمر من خلال الإسلام حلولا لمواجهتها وتجاوزها..

قاتل حمزة

تمثل هذه الرواية التوازن بين الفن والتاريخ، وتحكي من خلال شخصية وحشي بن حرب ذلك العبد الحبشي انعكاس أحداث السيرة النبوية منذ غزوة بدر حتى وفاة وحشي في عام 25 هجرية. وسوف نتناول الرواية من خلال أهم عناصرها الفنية في الصفحات التالية.

المكان:

تشير افتتاحية الرواية إلى مكة؛ المكان الأساسي في الرواية الذي يعيش فيه بطلها وحشي بن حرب، وهي تلك البلدة التي تبدو بيوتها كتلة غامضة صامته لا تكاد تبين معالمها ويغطيها وبطاحها الليل بسواده ولكنها تضطرم بانفعالات ثائرة وأحقاد مبيتة وآمال خطيرة يلوثها الشذوذ والعناد استعدادا ليوم الثأر من المسلمين الذين هزموا قريشا يوم بدر وقتلوا من رجالها وأبطالها عددا كبير عدا من أسروهم، فضلا عما أخذوه من غنائم وأسلاب، مكة الصامتة يلفها خلاء صامت أيضا ينبئ عن الجغرافيا التي تحكم المكان والغموض الذي يحكم المستقبل أيضا، فالاستعداد للغزو والذهاب إلى المدينة المنورة لقتال المسلمين، يجعل المكان في حالة موازية لحالة وحشي الباحث عن الحرية بالدم، وبأية وسيلة.

مكة رمز الخصومة مع الإسلام، لأنها مقر حماة البيت الحرام الذي تقبع في أرجائه الأصنام التي يعبدها القرشيون ومن معهم، ويدافعون عنها ضد المسلمين الذي يعبدون إلها واحدا لا شريك له،ودعوة التوحيد ضد الأصنام والأوثان في كل الأحوال. ومكة غارقة في الإثم من قمة رأسها لأخمص قدميها.. إنها بؤرة النفاق والكذب والحماقة في أغلب منتدياتها ومسامرها.

أيضا فإن مكة تضطرب في داخلها مذ جاء محمد برسالته والناس في هرج ومرج، والأفكار تتصارع والسيوف تسل، ويتعرض من يعلن إسلامه إلى العسف أو الملاحقة أو الحصار أو التعذيب أو الهجرة متخفيا.

مكة تقابل المدينة حيث تبدو الأخرى أكثر استقرارا، بعد أن حققت نصرا غير متوقع على الأولى جعلها تعد العدة للانتقام والثأر، وإن كانت في الوقت نفسه مهوى القلوب والأفئدة لمن

أسلموا سرا ولا يستطيعون البوح بإسلامهم ن وربما فر بعضهم إليها تحت جنح الظلام هربا من جبروت أهل مكة وقسوتهم وغطرستهم،فهي مقر الحبيب – صلى الله عليه وسلم – رمز الرحمة والحنان والعطف والنور بدلالاته المختلفة.

أما بيوت مكة فلا تقدم الرواية وصفا دقيقا أو شاملا لها، وإن كنا نفهم أنها بسيطة البناء، بدليل السور المنخفض الذي يقفز وحشي من فوقه ليلف إلى داخله بعد أن تعذر عليه أن يدخل من الباب، وتبدو البيوت في مكة بصفة عامة في حالة متوازية مع المواقف النفسية والاجتماعية، فبيت وحشي جامد صامت، لا تشرق له طلعة ولا يبدو عليه أدنى اكتراث. ولكن البيوت في مكة لها حرمات، لا يجوز اقتحامها في أي حال من الأحوال.

وتعد الطائف بصورة ما امتدادا لمكة، ففيها ثقيف وهوازن، وهما قبيلتان كبيرتان أخذتا موقفا مناوئا للدعوة. وتاريخ الطائف بالنسبة للدعوة الإسلامية غير مريح، فقد كان موقف أهل الطائف من النبي – صلى الله عليه وسلم – حين ذهب إليهم يدعوهم إلى الإسلام غير طيب بل مسيء إليه، لقد رفضوا الإيمان به، وآذوه،وسلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم لقذفه بالحجارة حتى دميت قدماه، ولذا ظلت الطائف عنصرا مقاوما للدعوة حتى تم إخضاعها بعد فتح مكة، فدخل أهلها الإسلام وتم تكسير أصنامها.

أما الطريق بين مكة وجبل أحد المجاور ليثرب (المدينة) فهو طريق طويل مملوء بالصعاب والمزالق والمتاهات، والليل يخلف النهار والنهار يعقب الليل، ومع صعوبة الطريق فجيش الثأر العرمرم يحث الخطا لتحقيق الأمنيات الشيطانية.

ويبدو أحد جبلا شامخا لا يطأطئ رأسه لأحد، يرمق ما يجري في صمت وجمود، والناس يتصارعون في استماتة بالغة، والغبار ثائر، والسيوف تلمع تحت وهج الشمس الحارقة وصيحات الرجال تتعالى، ويشهد تقدم المسلمين في معظم المعركة وتراجعهم في نهايتها بسبب مخالفة الرماة لأوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم.

وبصفة عامة فالمكان يبدو جهما كئيبا حين تكون الشخصية الروائية في حالة قلق إيماني، وتذكّر الشخصية الأساسية في الرواية بالأحزان والشقاء، وتبث في نفس صاحبها الإحساس بالغربة والألم، أما في حالة الأمل والإشباع الروحي فتتحول إلى ما يشبه الجنة، وتبعث في النفس الحنين إليها والرغبة في العودة إليها كلما ابتعد عنها.

الزمان:

يبدأ زمان الرواية فيما بعد غزوة بدر التي وقعت بين المسلمين والمشركين في العام الثاني للهجرة، وتمتد حتى العام الخامس والعشرين من الهجرة حيث توفي بطل الرواية وحشي بن حرب في مدينة حمص بالشام، وقد جاء هذا الزمان التاريخي حاملا لكثير من الأحداث التي شكلت مسيرة الدعوة الإسلامية أو السيرة النبوية، ولأن الرواية تحمل شخصية بعينها تحاول تجليتها فإنها توجز في أحداث السيرة، وقد تقفز قفزات زمنية واسعة لتطوى مسافات زمنية ممتدة كما نرى في فترة بدء الخلافة حتى وفاة وحشي عام 25 هجرية، وذلك لأن تلك الفترة لم تكن ذات إثارة في حياته، بل قضاها هادئا وادعا مجاهدا في سبيل الله، يخرج مع الجيوش الإسلامية وهي تواجه المرتدين في اليمامة فيقتل بحربته مسيلمة الكذاب، وهي الحربة التي قتل بها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وقال عنها وحشي: "بحربتي هذه قتلت خير الناس، وبها قتلت شر الناس". بيد أن الرواية تتيح الفرصة للقارئ ليمد بصره إلى مرحلة ما قبل غزوة بدر بل ما قبل البعثة ليتعرف عليها، وعلى ما كان سائدا فيها من عادات وتقاليد وعلاقات إنسانية وطبقات اجتماعية وعناصر بشرية من خلال حياة الشخصية المحورية وهي شخصية وحشي، فضلا عن قضايا الحرية والعبودية والأخلاق السائدة، وذلك عن طريق التذكر والاسترجاع وحديث النفس. ويمتد الرجوع إلى الماضي حتى زمن الفيل في إشارات سريعة خاطفة ولكنها دالة تربط بداية الدعوة الإسلامية برحيل الشخصية الروائية الأساسية (وحشي) إلى بارئها.

بناء الرواية:

من خلال أحداث تتتابع وتمر بوحشي الذي يرتبط بعلاقات متشعبة مع حبيبته وسيده والمجتمع والمسلمين، وتصنع التشويق لمعرفة ما ستؤول إليه الأحداث ونهاياتها حيث ينتقل الحدث من حالة بسيطة إلى حالة مركبة تتعقد فيها الأحداث وتتشابك، ويبحث القارئ عن كيفية الوصول إلى حلول.

تتكون الرواية من فصول مرقمة تبلغ ثلاثين فصلا، كل فصل يمهد للآخر، ويسهم في تكوين البناء العام للرواية، وإن كانت أهمية البناء تبدأ من عتبته، حيث يقدم الفصل الأول عقدة الأحداث من خلال العبد الحبشي وحشي بن حرب الذي يتوق إلى الحرية بأي ثمن، ولو كان هذا الثمن هو الدم، دم الشرفاء أو دم الأشرار، ولذا يضطرم قلبه بالعواصف والأحقاد ويقبل ما يغريه به سيده جبير بن مطعم ليقتل حمزة بن عبد المطلب، نظير حصوله على حريته وانضمامه إلى نادي السادة الذين لن يقبلوا به، ويعاملونه بوصفه عبدا أدنى درجة منهم.

ونتعرف في هذا الفصل على الشخصية الأخرى التي يهواها قلب وحشي، وهي الأمة التي سماها عبلة تشبّها منه بعنترة بن شداد الذي كان عبدا وأعتقه سيده بعد اعترافه به ابنا له، كي ينقذ

القبيلة من أعدائها وينتصر عليهم، وهذه الأمة أو عبلة وحشي تختلف عنه في التفكير والسلوك، وإن كانت تعلن عن حبها له، وتمنيها أن يكون شخصية هادئة وادعة، ولكنه يصر على التخبط، ويبين عن نفسه بطريقة مخيفة مدمرة، ويقول كلمات لا تفقه منها شيئا.

ثم تتابع أحداث الرواية فنرى استعداد قريش بقيادة أبي سفيان ليوم أُحُد، ونرى وحشيا يودع فتاته وهو في طريقه إلى المدينة ليحقق حلمه الذي اقترب لنيل الحرية، خاصة وقد انهالت عليه الوعود بالمكافآت السخية إذا قتل حمزة بن عبد المطلب، وتتصدر هند بنت عتبة زوج أبي سفيان من يرغّبون وحشيا بقتل حمزة وتعده بمكافآت جزيلة فهي تريد الثأر لابنها وأخيها ووالدها،ونرى فتاة وحشي تفكر في محمد – صلى الله عليه وسلم – وتلتقي بالمسلمات اللاتي آمن في السر بالدعوة المحمدية ويتحدثن عن معان جديدة مثيرة، فقد شعرت أن وحشيا بعد أن فارقها إلى المدينة قد حبس نفسه في سجن غامض من صنع يديه وأنه أسير أهواء قاتمة السواد، وبعد أن اختفى شبحه بقيت صورة وجهه المتقبض، وعينيه اللتين تقدحان بالشرر عالقة بذهنها، وظلت أصداء كلماته الغريبة تطن في رأسها المتعبة.

ويمضي ركب قريش المقاتل إلى المدينة أو يثرب كما كانت تسمى قبل الهجرة يشغلهم الثأر والقضاء على المسلمين، ويسير وحشي مع الركب يشعر بالوحدة والقلق، ولكنه يحرص على حربته التي سيقتل بها حمزة، وتحقق له حريته.

تشتعل المعركة ويحتدم القتال الشرس الذي بدأ باكتساح المسلمين، ثم التفاف خالد بن الوليد عليهم بعد مخالفتهم أوامر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويتمكن وحشي من قتل حمزة بن عبد المطلب، وتقوم هند بنت عتبة زوج أب سفيان بالتمثيل بجثته في مشهد بشع تغذيه أحقاد وحشية، وتجدع أنف حمزة وتقطع أذنيه وأجزاء أخرى وتجعل منها أقراطا وأساور تتحلى بها تشفيا وانتقاما، لقد خلعت أساورها الذهبية وأقراطها المطعمة بالجوهر ووهبتها هدية لوحشي، ونحر المشركون الجزور وشربوا الخمر وسكروا بالكأس وحلاوة النصر، وترنموا بالقصيد، وتغنوا بالثأر.. ووحشي جالس وحيدا يعب من كأسه، ويصحو على حقيقة أن موت محمد كان أكذوبة أطلقت في أثناء احتدام القتال، وأن المسلمين مع ما جرى لهم مازالوا صامدين، وأنهم يداوون جراحهم ويجمعون شتاتهم ويستعدون لجولات جديدة.

يعود وحشي إلى مكة مع القوم المنتصرين بالحرية والمال، ويشتد في داخله صراع الإحساس بالعبودية مع نيله الحرية وحصوله على المال والذهب، وينتظر حبيبته (عبلة) التي لم تأت، ويقتحم دارها، فيقبض سيده عليه ثم يتركه بعد أن يخاطبه بكلام جارح يذكره بعبوديته، ويتندر أقرانه بحبه

للعبودية، فيغرق نفسه في الخمر كي ينسى، وتصده الجارية وتعلن عن إسلامها، فيعيش تمزقا نفسيا، ويهددها بإفشاء سرها لسيدها، ويتركها ليتخبط في الظلام !

يأتي "سهيل" من الطائف، وهو عبد يعمل بالتجارة لزيارة صديقه وحشي في خضم حيرته وعذابه فيستعرض أمامه الدعوة وموقف العقل والحرية، ولكن وحشيا لا يهتم، لأنه مشغول بعبلة، وتنهمر دموعه حزنا عليها. ويقرر أنه لن يقيد نفسه بأي قيد ولو كان هذا القيد رسالة الله، ولذا لن يَسْلم من أجل عبلة، ولن يشي بها عند سيدها، ويلجأ إلى الخمر كما العادة، ويذهب إلى "وصال" التي تعمل في تقديم المتعة للرجال كي ينسى، بيد أنه لا يستطيع أن يسلو وتطارده مسألة الحرية والعبودية والحسب والنسب، وتنغص عليه حياته.

وفي مسامرة بين الإماء يكتشف القارئ سير الدعوة وحركتها، ورد فعل أهل مكة، وموقف اليهود، وإعلان عبلة إنهاء علاقتها بوحشي نهائيا بعد أن يئست من دخوله إلى الإسلام، وهي تعلم أن هناك من ستنقل إلى وحشي قرارها تقربا إليه وطمعا في رضاه.

نتعرف على تحريم الخمر في الإسلام، وانخفاض ثمنها في مكة، ووحشي يفكر في شراء عبلة من سيده، ولكنه يرفض فيشي له بإسلامها، فيؤكد رفضه ولا يصدقه فينصرف وحشي مخذولا، وتتوطد علاقته مع وصال من خلال حديث عن الدعوة.

ويترل سهيل ضيفا على وحشي ويعرض عليه الإسلام بعد أن يبوح بإسلامه، ولكن وحشيا مازال أسيرا لنفسه وهواه، وينتحب مثل الثكلى.ويسعى اليهود لاستخدام وحشي في قتل النبي – صلى الله عليه وسلم – فيترل يهودي ضيفا على وحشي ويغريه بالمال والنساء، ولكن وحشيا يبدو مترددا غير واثق في اليهود أو غيرهم، لأنه يحلم بعبلة، ويترك له اليهودي دنانير كي يفكر..

يتصاعد البناء الدرامي بإعلان الجارية (عبلة) إسلامها في مواجهة سيدها الذي يبدو غير مصدق، ويستشيط غضبا، ويعيش في حيرة، ولكنه يستدعي وحشيا ليخلصه منه بطريقة تشمل التعذيب وغسيل المخ في آن !

واجتمعت الجارية مع وحشي في بيت واحد،وينشب صراع بين إرادتين، ويحاول وحشي أن يخضعها ولكنه يفشل، فقد كانت تقاوم بصلابة.. وعند وصال يكتشف وحشي أن " وصال " تحبه وتتمنى أن يتزوجها وتشير عليه بالرحيل والهروب سرا.

تهرب الجارية من بيت وحشي، ويظهر اليهودي مرة ثانية، ليحرضه على قتل النبي – صلى الله عليه وسلم – ويغريه بالذهب، ولكنه يتجاهله، وينطلق إلى سيده القديم ليخبره بأمر الجارية وهروبها، فيجلده، ويعدّ الخيل للبحث عنها في الطريق إلى يثرب..

كانت عبلة قد هربت إلى دار "أم رابحة" التي أسلمت سرا، ويفشل جبير بن مطعم ووحشي بن حرب في العثور على الفتاة، بينما تستعد قريش لقتال المسلمين مرة أخرى (غزوة الأحزاب)، ويبقى وحشي في قلق عظيم يطارده شبح حمزة بن عبد المطلب.

ويزداد الموقف تعقيدا، فقد كان صلح الحديبية بعد هزيمة الأحزاب ورغبة المسلمين في دخول مكة معتمرين طائفين بالبيت الحرام انتصارا لهم، وحفظا لماء الوجه عند زعماء مكة، ويسعى وحشي إلى تحريض أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وجبير بن مطعم على قتال المسلمين، ولكنهم يعلنون التزامهم بالهدنة التي تتيح للمسلمين العمرة وقضاء ثلاثة أيام في مكة، ويرفضون تحريضه فيهرب إلى الخمر ووصال.. ويأتي اليوم الموعود المشهود، ويدخل المسلمون مكة، وبلال يصعد الكعبة ويؤذن بصوته الجميل الندي، والمسلمون يكبرون ويهتفون: لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وخالد بن الوليد يتغير استعدادا للهداية ويتأثر بمشهد المسلمين حول البيت الحرام ويجابه أبا سفيان ويستعد للهجرة، ووحشي يزداد شقاء وشبح حمزة يطارده، ووصال ترفضه وتتوب وتسلم وتهرب.. وحلفاء قريش من بني بكر ينقضون صلح الحديبية ويقاتلون خزاعة، ويستعد المسلمون للقتال دفاعا عن حلفائهم المغدورين، ويضطر أبو سفيان أن يقوم برحلة إلى المدينة المنورة من أجل منع الحرب وإطالة مدة الهدنة عشر سنوات؛ ولكن الرحلة تنتهي بالفشل، ويعود مهموما منهزما لا يدري ما ذا يفعل، ووحشي ما زال في سُكره وغيبوبته يطارده شبح حمزة.

صار المستقبل أمام أبي سفيان زعيم مكة مظلما،ويتعرض لمحنة قاهرة، بين الحقيقة التي يعرفها وتتمثل في قوة المسلمين وشدة بأسهم، وتحريض الشباب وزوجه هند على القتال، فيحاول تهدئة الثائرين.. ويعيش وحشي في همّ مقيم بسبب حمزة !

تستعد المدينة لفتح مكة في سرية تامة، ويلعب العباس عم النبي دورا كبيرا في تثبيط همة قريش، ويعيش أبو سفيان معركة نفسية هائلة تنتهي بإسلامه، ويجيء نصر الله والفتح فيدخل الناس في دين الله أفواجا، ووحشي وقلة من أهل مكة من بينهم عكرمة ورجال من بني بكر يريدون القتال في جنوب مكة،وبعد قتال قصير يلوذون بالفرار، وتنتصر الدعوة وتسقط الأصنام وتسلم هند وعكرمة وجبير ويهرب وحشي إلى الطائف، ويكتمل النصر بإسلام ثقيف وهوازن، ويقوم أبو سفيان والمغيرة بتحطيم أصنام الطائف.

تقدم الرواية أول خيوط التمهيد لانفراج أزمة بطل الرواية؛ حيث يلتقي سهيل مع وحشي الذي يحاول الانتحار، فيمنعه ويذكره أن باب الله مفتوح، ويفكر في الفرار إلى اليمن أو الحبشة، ويظل سهيل في محاولة إقناعه بالإسلام، حتى يعلن إسلامه ويعصم دمه، فيقول: آمنت بالله، ويغذ السير إلى المدينة ويلتقي بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ويصبح واحدا من المسلمين، ولكن

الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول له بعد أن عرف منه كيف قتل حمزة: "ويحك !.. غيّب وجهك عني.. ".

وتطارده هذه المقولة وتؤرقه وتشعره بالعذاب والندم. لقد كانت هذه المقولة أقسى عليه من القتل، لأنها ستتردد في أنحاء الجزيرة وعلى مدى التاريخ، ولأنها ستحرمه من رؤية النبي –صلى الله عليه وسلم– إلا من مكان بعيد.

وتعلم المدينة بإسلام وحشي، ولكن النظرات تتبعه أينما حل وحيثما رحل، وزوج عبلة يخبرها بإسلام وحشي فيفتر ثغرها عن ابتسامة خالصة وتعده نبأ سارا؛ لأنه وصل إلى طريق النور والري.. كما علمت وصال بإسلام وحشي، وترى أن موقف الرسول معه درس مؤثر سوف يصفي جوهره وينقي فؤاده من الشوائب، لقد أسلم العرب جميعا، وصاروا أخوة، ويلتقي جبير بن مطعم بوحشي فيقول له: أهلا أخي، وهي كلمة عذبة جميلة أروع من الحرية والمال ونساء الأرض قاطبة، لقد صار السيد والعبد في ظلال الإسلام "أخوة ".

ويقوم وحشي بعد وفاة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وبدء عصر الخلافة بدوره مثل بقية المسلمين، ويجهش وحشي بالبكاء لفراق النبي –صلى الله عليه وسلم– ويعبر عن مشاعر المودة والحب الغامرة تجاهه عليه الصلاة والسلام، ويقاتل وحشي مع المسلمين ضد المرتدين،ويقتل بحربته مسيلمة الكذاب، ويرى حمزة في المنام ويحتضنه، ويعيش مقاتلا في سبيل الله، ويشارك في معركة اليرموك ضد الرومان، ويعيش بقية حياته في حمص بالشام حيث مات في عام 25 هجرية على فراشه.

الشخصيات:

وهي تحمل مع الأحداث المرتبطة بها حركة الدعوة وتطورها، وتكشف عن المواجهة بين الإسلام والمشركين، ومراحل الصراع وتطوره، والانتصارات والهزائم والدروس التي استوعبها كل فريق بالنسبة لمصيره ومستقبله.

ومن الطبيعي أن تكون الشخصية الأولى الأساسية في الرواية هي شخصية وحشي التي دارت حولها أحداث الرواية، ووحشي عبد حبشي اشتراه سيده جبير بن مطعم بثمن بخس، وتربى على طاعة السيد وتنفيذ أوامره، ولكن داخله يضطرم برغبات سوداوية وأحقاد على السادة في مكة وعلى سيده المباشر، ويريد أن يتحرر، وينطلق بلا قيود، وهو يجيد القتال بالحربة، يسددها إلى الهدف فتخترق أحشاءه، وتقتله على الفور. ولذا اختاره سيده جبير بن مطعم ليقوم بالمهمة الصعبة وهي قتل حمزة بن عبد المطلب، مقابل حريته، فيصادف العرض هوى في نفسه، وتؤكد هذا العرض

هند بنت عتبة زوج سيد قريش أبو سفيان بن حرب التي جاءت إليه بنفسها لتحرضه على قتل حمزة، وتعده بما يجعله غنيا بين الأغنياء وسيدا بين السادة، وتسمعه ثناء على بطولته وإطراء لشخصيته، ما يجعله يشعر بأنه أصبح ذا قيمة كبرى بعد أن عاش ضائعا تائها محتقرا.. ومع ذلك فقد كان يدفن أحزانه في الخمر التي يعب منها دائما لينسى شعوره بالعبودية والوحدة والاحتقار، وكثيرا ما تلعب الخمر برأسه فيأتي أفعالا تجعل سادته أو من يرونه يسخرون منه أو يقيدونه ويدخلونه إلى البيت كي يبتعد عن المارة أو من حوله.

ولكنه يتمكن بالغدر والتخفي أن يسدد حربته إلى حمزة ويقتله، وبعد أن نزع حربته من أحشاء الشهيد أخذ يصيح ويقهقه فقد أصبح حرا. ولكنه ما زال يستشعر العبودية، ويسمع من يقول: أيها الأجير، فكأن حية سامة فتاكة قد لدغته ! وتلفت حوله فلم يجد أحدا.

دائما يشعر بالمطاردة طوال حياته يجري ويلهث، لم يغنم الراحة في حياته، ولم يذق طعم السعادة حتى في اللحظة التي ظن أنه نال حريته..

ويؤرقه سؤال: كيف تغلب القلة (المسلمة) هذه الكثرة الهائلة؟ لم يجد إجابة على سؤاله، ولكنه مصمم ألا يسلم نفسه لمحمد ورجاله، فقد صار مثل مولاه جبير بن مطعم تماما، ولا يعنيه أمر "هبل" وغيره من آلهة مكة، ولو كان هناك شيء يعبد حقيقة لعبد ذاته.

كان تركيز الرواية على شخصية وحشي ينصب على إبراز ما يدور بداخله لبيان كيفية قدرة الإسلام على تحويل الشخصية الشريرة الحاقدة المدمنة إلى شخصية طيبة متسامحة مؤمنة، وهذا ما يعبر عن عبقرية الإسلام وقدرته على تحريك الشخصية إلى الاتجاه نحو الخير والإنسانية بمعناها المتسع والممتد الذي يشمل الناس جميعا.

وقد أولت الرواية اهتمامها الجانب الداخلي لشخصية وحشي، دون إخلال بالحركة الخارجية للشخصية والأحداث التي تخص الدعوة والصراع المحتدم حولها، حيث يستطيع القارئ للرواية أن يتابع السيرة النبوية وأحداثها في أهم منعطفاتها وحوادثها المؤثرة.

وتبدو بقية شخصيات الرواية مساعدة للشخصية الأساسية فنيا؛ أعني شخصية وحشي التي تحركت على امتداد الرواية وحولها بقية الشخصيات التي جاءت لإضاءتها وتفسير الحوادث أو بيان دورها في صناعتها أو انعكاسها عليها، مع ملاحظة أن هذه الشخصيات قد تبدو في الواقع العملي للسيرة النبوية أكثر أهمية من وحشي الذي كان مجرد عبد يعمل لدى سيده، لأن الشخصية الروائية في وضعها الفني تختلف غالبا عن وضعها في الواقع التاريخي أو الواقع الحي.

ومن أبرز الشخصيات الروائية بعد شخصية وحشي، شخصية سيده؛ جبير بن مطعم الذي اشتراه منذ وقت بعيد في مطلع صباه، وقد اختاره ليقوم بمهمة الثأر لما جرى لقومه في بدر، بقتل حمزة بن عبد المطلب، وهو الاختيار الذي صادف قبولا لدى أعيان المشركين في مكة وفي مقدمتهم هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل. وترتبط علاقة وحشي بجبير قبل حصوله على الحرية وبعدها. وفي بيت جبير كانت تعيش الفتاة التي أحبها وحشي، وأراد أن ينتقم منها بمفرده أولا بشرائها وإخضاعها، ولكن سيده يرفض لأنه لا يفرط فيها لاحتياجه إليها فيشي بإسلامها سرا، ولكنه لا يصدقه. وبعد أن ينصرف وحشي مخذولا تلتقي إرادته مع إرادة سيده بالرغبة في تعذيبها وغسل مخها لتتخلى عن الإسلام، وحين تهرب الفتاة من بيت وحشي، فإن جبير يجهز الخيول للبحث عنها في الطريق ما بين مكة والمدينة.

بيد أن جبير وهو يشارك زعماء مكة في الحرب ضد المسلمين والتحريض عليهم، يدخل إلى حظيرة الإسلام يوم الفتح، مع من أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا.

ومن الشخصيات المهمة في الرواية التي اعتمدت عليها الرواية في بناء الأحداث شخصية أبي سفيان بن حرب وهو سيد له مهابة وزعيم مكة وقائد جيشها، وقد خسر معركته مع المسلمين يوم بدر وفقد فيها كثيرا من الأبطال والرجال، وهو زوج هند بنت عتبة، التي تقوم بدور المحرض للثأر من المسلمين، كما تحرض وحشيا على قتل حمزة بن عبد المطلب، وتدفع أبا سفيان لإنجاز مهمة القتال والثأر والانتصار، وهو شخصية براجماتية –إن صح التعبير– فمع أنه كان عدوا شرسا وعنيفا وعنيدا، وقاد قريشا والمشركين منذ البداية لقتال المسلمين والحشد ضدهم وتأليب القبائل عليهم، وخسر في الحروب أقارب وأصدقاء، فإنه لا يستنكف أن يذهب إلى مكة حين يعلم أن المسلمين يستعدون لقتال قريش وحلفائها بعد أن نقضت قبائل بكر عهدها وهاجمت خزاعة حلفاء المسلمين. لقد ذهب إلى المدينة محاولا إثناء النبي – صلى الله عليه وسلم – عن قراره بالحرب، ويوسط لديه ابنته وأبا بكر وعمر وعليا؛ ولكنه يجد رفضا وعدم استجابة فيعود خالي الوفاض، وحين يتبين له أن جيش المسلمين قد اقترب وعزم على دخول مكة فإنه يخضع لحسابات عقله، ويعلن استسلامه وإسلامه في آن، وكان قبيل الفتح يواجه رغبة شباب مكة بالحرب والمواجهة مع المسلمين بشيء من المرونة والمراوغة لأنه كان يدرك أن مقاومة المسلمين لا جدوى منها، وقد استطاع أن يحصل على ما يشبه الوسام من النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الفتح حين أعلن ".. من دخل دار أبي سفيان فهو آمن..". وكان واحدا من اثنين حطما أصنام الطائف بعد إخضاعها ودخول أهلها الدين الجديد.

ومن أبرز الشخصيات التي تضمنتها الرواية، شخصية حمزة بن عبد المطلب، عم الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي شخصية لا نراها على أرض الرواية إلا من خلال الشخصيات الأخرى، وخاصة شخصية وحشي الأساسية، فهو يصفها في أكثر من مناسبة، فنرى حمزة فارس العرب الهمام،وعم رسول الله،وسافك دم الكبار الأعزة من رجالات مكة يوم بدر المشهود.. (نجيب الكيلاني، قاتل حمزة، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ = 1987م؛ ص 14).

حمزة ركن من أركان الإسلام، وحمزة كما تقول هند بنت عتبة: جيش بذاته، ثم هو قاتل الأحبة، ومبدد شمل الأبطال، وهو عم محمد والأثير إلى قلبه (الرواية، ص 25). وهو الذي يفرق الصفوف ويصرع الأبطال كالجمل الأورق، وهو الفارس الذي لا يشق له غبار، وليس في إمكان وحشي أن يلقاه وجها لوجه في معركة صريحة، ولكن بالغدر والتخفي يستطيع، وقد فعل، وسقط شهيدا بحربة وحشي الذي اختبأ خلف شجرة وسدد حربته التي اخترقت أحشاءه وهو يجالد كفار قريش وصناديدها، فيخر شهيدا بإذنه تعالى، ويحمد الله الذي كتب له الشهادة وأماته على دين الإسلام !

وهناك شخصية مؤثرة في صنع الأحداث وهي شخصية هند بنت عتبة زوج أبي سفيان بن حرب التي تندب قتلاها يوم بدر: ولدها وأخاها وأباها، وتسعى للثأر لهم، وتحرم على نفسها وضع الزيت على شعرها أو الماء على جسدها وتعلن الحداد حتى يتم الأخذ بثأر الأشراف من بني قومها، وتذهب إلى وحشي وتغريه بالعطاء: "لئن قتلت حمزة يا وحشي فلك مني ما تشاء من مال وذهب وإبل وأغنام.. سأكافئك أعظم مكافأة" (الرواية؛ ص 16).

وتقف يوم أحد تحرض المقاتلين المشركين: "يا صناديد العرب.. إن هي إلا جولة قصيرة، وينتهي أمر محمد.. فتشفى النفوس، وتهجع نيران الثأر.." (الرواية؛ ص 22).

ومع أنها مثلت بجثة حمزة بن عبد المطلب في انتقام هستيري متوحش، فقد اهتدت إلى الإسلام، ودخلت في دين الله يوم الفتح على قاعدة أن الإسلام يجب ما قبله.

ومن الشخصيات المهمة فنيا في الرواية شخصية سهيل، ذلك العبد الذي كان صديقا لوحشي، وكان يعمل بالتجارة لحساب سيده في الطائف، وينتقل بتجارته من مكان إلى مكان، وكان يزور وحشيا في مكة كلما زارها، وسنجد أن له دورا مؤثرا في حياة وحشي، فقد كان من الذين أسلموا سرا، وكثيرا ما كان يحاول أن يقنع صديقه بترك الأحقاد والأحزان ليكون بشرا سويا، وفي مرحلة لاحقه منعه من محاولة الانتحار، وعرض عليه الإسلام، حتى استطاع إقناعه وتشجيعه للقدوم على النبي –صلى الله عليه وسلم– فضلا عن دوره في خدمة المسلمين عن طريق تزويدهم بأخبار أهل الطائف واستعداداتهم العسكرية ونواياهم تجاه المسلمين.

هناك شخصيات عديدة أخرى كان لها دور ما في الرواية، ولكنه من الناحية الفنية دور ثانوي يكمل مشاهد الأحداث أو يربط بينها أو يضيء جانبا من جوانب الصراع حول الدعوة وموقف المسلمين أو المشركين كما نرى الجارية التي كان يحبها وحشي وأطلق عليها وحشي اسم عبلة، ودخلت الإسلام سرا، وواجهت سيدها بسرها وتعرضت لغضبه وغضب وحشي، وهرب بإسلامها، ومثلها شخصية وصال تلك المرأة التي كانت تبيع المتعة، وكانت تحب وحشيا وتتمنى أن يتزوجها، ولكنها تؤمن بالدين الجديد سرا، وتترك مهنة الرذيلة، وتلحق بالمسلمين في مكة، وتتزوج هناك، وتبدأ عهدا جديدا من الطهر والنقاء، وهي أيضا مثال لقدرة الإسلام على تحويل الشخصية من الحياة السلبية إلى الحياة الإيجابية.

ثم هناك شخصية خالد بن الوليد قائد الفرسان في موقعة أحد، وقد استطاع أن يقوم بحركة التفاف يوم أحد على المسلمين لأن رماهم خالفوا الأوامر وتركوا أماكنهم ليجمعوا الغنائم، وتمكن أن يترل بالمسلمين خسائر كبيرة، وأن يحقق للمشركين نصرا انتشوا به وهم في طريق عودهم إلى مكة، ولكن الله يهديه فيدخل الإسلام ويلحق بالمسلمين ويعود مع جيش الفتح الأكبر، ويدخل مكة، ويواجه القلة التي أصرت على القتال يوم الفتح فيبدد شملها، وتولي الأدبار !

الصياغة

تتعدد وسائل الصياغة في الرواية لخدمة السيرة وتقديمها في إطار يقربها من القارئ، بل يجعلها جزءا من وجدانه وشعوره وذاكرته.فهناك **السرد** الذكي الذي وظف الجملة والعبارة والفقرة لتقديم الرواية بدءا من الافتتاحية حتى فقرة الختام.

تبدأ الرواية بقول الراوي:

"امتد الليل البهيم حتى شمل العالم من حوله، وغطى مكة وبطاحها بسواده، ولم تستطع النجوم المتناثرة في كبد السماء أن تبدد إلا الترر اليسير، فبدت مكة ببيوها كتلة غامضة لا تكاد تبين معالمها، والصمت يضرب أطنابه على الربوع، إنه صمت زائف يخفي تحت طياته انفعالات ثائرة، وأحقادا مبيتة،، وآمالا خطيرة يلوثها الشذوذ والعناد.. فغدا يوم الثأر.. غدا تخرج قريش بقضها وقضيضها.. لتثأر من محمد رسول الله.. فهي لم تنس يوم بدر.. تلك المعركة الخالدة التي قتل المسلمون فيها عددا كبيرا من رجالات مكة وأبطالها..وأسروا عددا آخر..

وفي خضم ذلك الظلام، خارج مكة، كان هناك رجل تجلس على جواره فتاة، وحيدين في خلوهما البعيدة، وبدا الرجل شاردا بعض الوقت، تمتمت الفتاة وقد آلمها شروده:

- ما بك يا وحشي؟

- عواصف هائلة تضطرم في نفسي.." (الرواية، ص 5).

وفي هذه الافتتاحية نستشعر الجو العام للرواية، وندخل مباشرة إلى ذروة الأحداث أو عقدها، ونرى دلالة الليل الذي يشمل العالم كله من حول بطل الرواية ليشمل المكان " مكة " وبطاحها، ثم التأكيد على سواد الليل وقتامته التي لا تبددها النجيمات المنثورة من بعيد؛ وفي كل هذا تعبير عن حالة نفسية مليئة بالقلق والاضطراب والحزن، يعمق من تأثيرها كلمات الغموض والصمت والانفعالات الثائرة والأحقاد المبيتة والشذوذ والعناد.. إنها تضيف عمقا يؤكد سوء الحالة النفسية والواقعية التي تلف شخصية بطل الرواية والمكان الذي تدور فيه الأحداث، وتنبئنا بالترقب لما سوف يتمخض عنه المستقبل الممتلئ بالثأر والدم انتقاما لما جرى يوم بدر بين المسلمين والمشركين، حيث تعرض الأخيرون لهزيمة قاسية وفقدوا كثيرا من رجالهم وأبطالهم في معركة كانوا يظنون أنهم سيكسبونها في سهولة ويسر، ولكن التجربة كانت قاسية للغاية، وهو ما جعل المشركين يعدون العدة لمعركة أخرى فاصلة !

وتشوقنا الرواية لمعرفة بطل الرواية وبطلتها من خلال الإشارة إلى رجل تجلس بجواره فتاة في خلوة بعيدة خارج مكة، ونتعرف على اسم الرجل الذي سيكون محور الأحداث والتحولات، وهو وحشي بن حرب الذي قتل حمزة عم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في جريمة غدر خسيسة جعلت الرسول – صلى الله عليه وسلم، بعد إسلام وحشي يرفض أن تصافح عيناه وجهه، ويقول له: "غيّب وجهك عني" !

الفتاة تسأل الرجل الذي يجلس بجوارها: - ما بك يا وحشي؟

فيرد عليها:

- عواصف هائلة تضطرم في نفسي !

وتكون هذه العواصف المضطرمة النواة الصلبة في بناء الرواية ونحن نطالعها،ونتابع أحداثها.

وفي خاتمة الرواية نقرأ عن هدوء هذه العواصف المضطرمة وتحولها إلى يقين وسكينة وعمل صالح لبناء الدولة الإسلامية وتأمينها:

"وعاش وحشي بعدها مجاهدا، وسار مع جموع المسلمين صوب الشمال، واشترك في معركة اليرموك ضد حشود الرومان، وأبدى بطولة فائقة..

ثم يؤكد الرواة أن أجله قد وافاه على فراشه في حمص بالشام، في السنة الخامسة والعشرين للهجرة " (الرواية، ص 269).

قبل هذه الفقرة تشير أحداث الرواية إلى أن وحشيا رأى حمزة بن عبد المطلب في المنام وابتسم له. ومع خوف وحشي فإن حمزة احتضنه وطوقه بذراعية وقبله وأخبره أنه سيكون معه في الجنة حيث الحدائق الخضراء والرياحين وريح المسك والحمائم التي تسجع والأنغام الحلوة الشجية.. مطلع النور حيث تبدو الحقيقة الصافية الصادقة التي تورق في أرضها الخصبة نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب والأمل.

هنا تشير الفقرة الأخيرة في الرواية إلى حالة الاستقرار النفسي والصفاء الروحي التي حكمت حياة وحشي، فحولته من شخصية مضطربة تعيش العواصف الهادرة والأحقاد والطموحات الملوثة والأفكار السوداء في الفترة التي سبقت إسلامه إلى شخصية هادئة واثقة تجاهد وتعمل مع الجموع الإسلامية من أجل الإسلام والدولة الإسلامية الناشئة، ويكون في مقدمة الصفوف التي تجاهد في سبيل الله وتواجه أعداء الدين ومن يهددون أمن البلاد، وتتجلى بطولاته في المعارك التي خاضها حتى توفي عام 25 هجرية في خلافة عثمان رضي الله عنه، ومع ذلك فقد مات على فراشه دون أن يموت في ميدان القتال الذي أبدى قيه بطولات فائقة..

ومابين الفاتحة والخاتمة في الرواية يطالع القارئ موجزا شائقا للسيرة النبوية في تتابع محكم يقرب قصة الإسلام وانتصاره على الكفر في مدى زمني قصير نسبيا بمقاييس التحولات الاجتماعية والحضارية التي تستغرق أحيانا مئات السنين ولكنها هنا استغرقت نحو عقدين من الزمان، وهو مدى قصير واستثنائي على كل حال.

إن تقديم السيرة في إطار عام موجز من خلال القصة، فضلا عن تصوير النفس البشرية في تحولاتها وانتقالاتها من معتقد موروث إلى دين جديد يخالف ما استقرت عليه العادات والتقاليد المتجذرة في النفوس والمشاعر، يحقق للقارئ متعة فنية فضلا عن زيادة الوعي بحقائق الإسلام وقيمه ومفاهيمه، وخاصة لمن حُرموا نعمة فقه السيرة ومعرفة خطوطها العامة.

خــاتمـــــة

لا ريب أن نجيب الكيلاني بذل جهدا فنيا وفكريا كبيرا في تقديم السيرة من خلال رواياته وقصصه، وإنتاجه يدل على إخلاصه للقضية الإسلامية مثل إبداعه في المجال الفني، وهو ما يوجهنا إلى ضرورة الاهتمام الأدبي بالسيرة سردا وحوارا ونظما، ثم تيسير ذلك للناشئة والأطفال ليرتبطوا بسيرة نبيهم – صلى الله عليه وسلم – بوصفه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة التي يجب اتباعها والسير على هداها، مواجهة للقصف التغريبي الذي لا يتوقف، والتجريف الفكري والذهني لأبناء الأمة.

إن تشجيع الأدباء والكتاب والشعراء على تناول السيرة من خلال الحوافز المادية والمعنوية — في المسابقات مثلا – أمر ضروري في ظل انهيار منظومات التعليم والثقافة في كثير من البلدان الإسلامية والعربية..

ولا شك أن الإفادة من الأعمال الروائية والقصصية التي عالجت السيرة وأحداثها، وتقديمها في الأفلام السينمائية والدراما المصورة سيوسع دائرة الإفادة من مسيرة الدعوة، مع نشر القيم الإسلامية وتوضيح مفاهيم الشريعة وتقريبها للجمهور، وفي الوقت نفسه ينسف كثيرا من المفاهيم المغلوطة والتشويهات المتعمدة التي يشيعها خصوم الإسلام وأعداؤه، والجاهلون به، ويلصقونها بالإسلام وتشريعاته.

والله المستعان.